(11) منهج التربية بإيحاءات الصناعة

قد وضعتنا التحليلات الآنفة، وقادتنا مواكبة خطوات تطور الفيزياء، إلى التزام صارم بوجوب دفع الدعوة الإسلامية والدعاة إلى تبنى فيزياء الكم وجعلها أحد الأركان الركينة فى منهجية ترويج الإيجان وتربية الناس عليه، ولكن لأن فروع العلم المتنوعة مترابطة، فإن الأداء الفيزياوى لا يمكن أن ينفرد، إنما عليه الانسجام مع كل العلم، مما يدفع الدعوة ثانية إلى التزام خطوط العلم الشامل كلها بمقادير متفاوتة لكنها متناسبة مع حاجة حركة فيزياء الكم الصاعدة المتوغلة نحو الأمام، ويتأكد هذا المنحى الشمولى بعد الإعلان السياسى لمنظومة الجينات البشرية، فإن جانب الجهل فى النفس الإنسانية يميل بها إلى الغرور والطيش فيكون وهم التخليق والتحدى للخالق، ولابد من كبح جماح النشوة عند السياسى للجاهل، والإعلامى المسترزق، والأمنى التابع المقلد، بحيث نقسرهم على العودة إلى العقلانية التى يفرضها منطق العلم، وإيقافهم عند نقطة النهاية العلمية الفيزياوية التى صححت الوضع النشاز ورجعت بالإنسان الهارب الهائم إلى طريق الإيمان وضعت قدمه ثانية ليبدأ أول خطوة فى طريق الاستدراك بعد الشرود من نقطة التوحيد الذى هو مطلق البداية فى عملية أوبة الآبق.

لكن العلم لا يمكن أن يبقى عائمًا، فإن ذلك ظن المتطفل على العلم، العارى من فهم معانى المنهجية، أما الأصيل، فإنه يدرك تمام الإدراك أن ثبات العلم وتطوره ورواجه وتأثيره مرتبط كل الارتباط بتطبيقه وتمكينه من احتلال مكان فى ساحة الحياة العملية، إذ عندئذ فقط تتعلق النفس البشرية به، وتجعله عقيدة لها من خلال التفاعل المتكرر عبر تعاقب الأيام لفترة من الزمن تطول أو تقصر بحسب المحفزات والظروف المساعدة الأخرى.

هذا التطبيق ليس قضية مختبرية، فإن الحقائق العلمية قد تجاوزت مرحلة الاختبار، لكن باستثمار الحقيقة العلمية صناعيًّا فى إنتاج واسع تحتاجه عملية الاستهلاك البشرى العام، ثم فى إسالة هذه الحقائق العلمية أو المخترعات اجتماعيًّا، ليفهمها الناس كلهم، وليتجانسوا مع

معطياتها، وليتدربوا عليها، وتكون ضمن أجزاء حياتهم العملية اليومية، فى عمليتين متزامنتين، بينهما معادلة، يكون التأثير فيها متبادلاً سائرًا فى الاتجاهين المتعاكسين معًا، وهذا ما تكفلت به منهجية العلم الغربية وأتقنته بإجادة تامة، ولأننا كدعاة نشكل ونمثل ونمارس عملية قيادة الأمة الإسلامية بدرجة ثانية بعد الحكومات ومؤسساتها، فإنه يمكننا أن نحشر أنفسنا على هامش منهجية التطبيق الصناعى العالمية للعلوم وعلى هامش منهجية إسالة العلم اجتماعيًّا، لتحملنا هاتان المنهجيتان معًا، وبالمجان تقريبًا، إلى حالة المساهمة فيهما، عبر المؤسسات العالمية العلمية والصناعية والمالية، من جامعات ومراكز بحث ومصانع وشركات وبنوك وبورصات وإعلام علمى وإعلام سياسى، وبذلك نكون كجزء من الحياة العالمية العامة، لكن بالشخصية الإسلامية المتميزة، وبعقيدة التوحيد، وبالعفاف والنمط الشريف، وبهوية فيها استقلال واندماج معًا، وبمنطق يشدد على العقلانية، وبنظرات معنوية تستند إلى حقيقة تكون النفس الإنسانية من خير وشر فى الآن الواحد وبشكل دائم، بحيث نقدم أنفسنا طلاب خير، نعمل لتنميته، عبر تزكية روحية، تكبت الشر وتقلل دوائر تأثيره. والمظنون أن المؤسسات الغربية مازالت مفتوحة الأبواب لمثل هذه المشاركة التى تعتبرها تسويقًا لرؤاها ومنهجيتها وليست سرقة أو تطفلاً أو تجسسًا، وإذا ضاقت أبواب الغرب فربما تكون هناك سعة فى الامتداد العالمى، فنرث شيئًا مما فى روسيا وبقايا الاتحاد السوفيتى، وشيئًا فى الصين واليابان وأستراليا، وشيئًا فى الهند ربما، بل إن تجانسنا مع خطوات أولية مورست بنجاح فى تركيا والباكستان وماليزيا يجعل دولنا إلى هذا العالم العلمى الصناعى دخولاً طبيعيًّا تتوفر فيه عوامل التدرج والبعد عن مخاطر القفز، كما تعتبر مشاركات المسلمين المتجنسين بالجنسيات الغربية ومشاركات أبناء الجاليات الإسلامية فيها عاملاً مهمًا من عوامل تقليل الفارق واختصار الطريق والاندفاع مباشرة نحو احتلال مكان متقدم فى الصف الثانى كمرحلة أولى، ثم فى الصف الأول بإذن الله إذا لم يصدم متشائمو الدعاة ورجعيوهم طموح الرهط المتوغل المنتفض المصمم على صدارة الحياة، ولا شك أن عملية استبشارية ضخمة كهذه تريد البرهنة على وجود جيل مسلم يتحلى بروح الاستعمار الإيمانى للأرض كما نطق القرآن، وترغب فى الإدلاء بشهادتها الفصيحة فى قضية منهجية التربية الدعوية الإسلامية، هى عملية أعقد من أن يجتهد فيها أفراد، أو أن تديرها القيادة السياسية للدعوة، وإنما يكون أبعد صور

الإحسان القيادى أن يتم تفهم ذلك، ويؤذن للجيل العلمى بالتحرك وفق هذا التصور المنهجى، ثم توكل اليوميات إلى غرفة سيطرة عالمية على رأسها داعية عالم متعمق عرف صناعة الحياة وقوانين حركتها، وعن يمينه زاهد من أصحاب الملايين، كلما نطق العالم الرأس المقدم قال له: صدقت، وحرك يده.

الخطوات

والطريق العملي إلى هذه المشاركة يمر عبر توحيد مجموعتين من الدعاة، فالدعوة تملك بحمد الله، على الامتداد العالمى، جيلاً من علماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات التطبيقية، وبعضهم يحتل أرفع المناصب فى الجامعات ومراكز البحث والمؤسسات العيمة، ولهم خبرة عملية، ويردفهم جيل واسع من المهندسين فى مختلف فروع الهندسة، قد يصل عددهم إلى مائة ضعف عدد العلماء أولئك.

هذا يعنى أن المادة الأساسية للمشروع العلمى الإسلامى العالمى موجودة، وأن النقص هو نقص تخطيطى فى استثمار الطاقات المعطلة.

ومن ناحية أخرى: شهدت السنوات الأخيرة نمو جيل دعوى تجارى صناعى زراعى، وجد له موضع قدم فى الأسواق، وحاز بعض المال، واكتشف بعض «أسرار صراع النفوذ وخلفيات مراكز القوة وتنافس العوائل الكبيرة والأحزاب على حكم المجتمعات والتأثير فى القرار، لكن هذا الجيل الدعوي لم يتوسع إلى الحد الذى فيه الكفاية، ولابد من تعريض طبقة رجال الأعمال الدعاة وتضخيم حجمها ليوازى التكتلات المنافسة الأخرى.

وبهذا التقرير تصبح الخطوة الأولى فى المشروع العلمى الجبار واضحة: أن يصدر قرار بحصر وإحصاء المجموعتين، ثم قرار توحيدهما معًا ومزجهما وتلاحهما وتعاونهما تحت مظلة المشروع العلمى لتكوين قاعدة صناعية بأيدٍ متوضئة، قوامها مئات المشاريع الصناعية الصغيرة المملوكة للدعاة أنفسهم وليس للدعوة، مع ما يوازيها من مشاريع خدمية، وبها يتحول العلم المجرد عبر المال إلى آلة ومنتوج يفرضان نفسيهما فى السوق الاستهلاكى والخدمى، ويكون تكوين هذا التيار الصناعى الموحد عن طريق الاستفادة من معطيات طرائق الإبداع الإدارى ومشاركة مراكز التدريب الإسلامية، مع الأخذ بنظر الاعتبار

وجوب التفلت من التفوق الذى تملكه الشركات العابرة للقارات المستفيدة من العولمة فى جانب مقدرتها على إرخاص التكاليف وتقديم المنتوج المنافس، ويكون هذا التملص بالوقاية واختيار ما لم تسيطر عليه هذه الشركات العملاقة بعد أو مما لا يكون لها سهلاً، وفى ذلك تفصيل ليس هذا محله.

إذا حصل هذا الالتحام النووى فإنه سيكون هو الخطوة الأولى، وهو الخطوة الأخيرة أيضًا، إذ ليس بعد لحظة الانفجار العظيم غير التعمق والتوسع وتكوين الكواكب والأقمار.

ووفقًا لهذا المفهوم، وبمطالعة الطبيعة التخطيطية والمقدرة الكامنة فيها على جعل القليل كثيرًا، والضعيف قويًّا، فإن أقطارًا صغيرة فى التصنيف الدعوى، مثل الكويت والإمارات وحتى سريلانكا: يمكنها أن تؤدى دورًا مؤثرًا فاعلًا فى المشروع العلمى الصناعى الإسلامى العالمى عبر عالمية الأثر التربوى تبعًا لعالمية المنهجية التربوية، من خلال التوكيل ببعض واجباته والتكفل بالقيام بها، وتقديم علماء أو مولين، وخبرة تخصصية، ومعطيات مؤسسية، وإحلال تجانس بين إبداع محلى محدود لديها وإمكانيات عالمية فى توظيفه واستثماره، أو انتصابها مفاصل تنسيقية، وكأسواق استهلاكية أو تصريفية عبر إعادة التصدير، وأقل ما تستطيعه هذه الأقطار الردف الإعلامى المعنوى، والمساهمة فى إتقان العملية التخطيطية، وإقرار فلسفة هذا التحرك، تقريبًا للقرار من حيازة صفة الإجماع عليه.

نحالف سواد المسلمين

لكن المشروع إذا انحصر فى خطوة واحدة، فإن تضخيمه وتوسيع عدد المشاركين فيه سيكون هو موضع التطوير والخطوات اللاحقة، والمظنون أنه إذا استقر فى عالم الواقع كحقيقة فإن أمامه فرصة ليتوسع إلى مائة ضعف حجمه الأول.

كلام أشبه بالجزاف واللغو، لكنك إن صبرت معى أحلل لك موازين الإسلام وحركة الحياة – لآمنت!!

أريدك أن تلحظ معى اللمسة الحضارية التى جاء بها الإسلام فى فهم معنى الاستعمار الإيمانى للأرض والدور البشرى فى ذلك.

ففى الحديث الصحيح عند البخارى أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

قال ابن حجر:

«قال الطيبى: نكّر مسلما، وأوقعه فى سياق النفى، وزاد «من» الاستغراقية، وعم الحيوان، ليدل على سبيل الكناية على أن أى مسلم كان، حرًا أوعبدًا مطيعًا، أو عاصيًا، يعمل أى عمل من المباح، ينتفع بما عمله أى حيوان كان: يرجع نفعه إليه ويثاب عليه» (1).

فاللمسة الحضرية هنا لمستان: النظر الرفيق إلى الحيوان والطير، والنظر التشجيعى لكل مسلم حتى لو كان فاسقًا، تبعًا للتعميم والإطلاق، كما شرح الطيبى.

فالإسلام يحث المسلم الفاسق أيضًا على الغرس، وهنا تكمن اللمسة الحضارية الأهم، وينتصب ذلك كميزان شرعى فى صناعة الحياة، وليس هو المسلم المؤمن الكامل الأوصاف فقط.

ثم تعال معى: إن كان ذلك هو الحق، فهل هو الغرس لشجرة فقط ليؤجر؟ أليست الآلة المنتجة حكمها مماثل أو دورها آكد ونجدتها للبشر والحيوان أبعد؟ أو المادة الكيماوية أو الدوائية، أليس إنتاجها يسير فى النفع على نفس المسار؟ لذلك أوردت الأحاديث الشريفة نماذج أخرى للإحسان الجالب للأجر، من حفر بئر، نزولاً إلى إماطة أذى عن طريق، ثم توسع الفقهاء فى تصوير الإحسان، وأثبتوا لبناء القناطر وبناء المدارس، والمستشفيات مثل ذلك الأجر حتى لو لم تكن موقوفة، فإذا أراد الفقه المعاصر أن يتوسع فى التمثيل فيلحق إنشاء المعامل الصناعية بخط الثواب، أفيكون فى الأمر غرابة؟! والشيخ القرضاوى هو أبو الفتوى.

من هنا يتبين أن المشروع العلمى الصناعى الإسلامى إذا ثبت نفسه فى المرحلة الأولى بأيادى الدعاة الكمل، فإنه مطالب بالاقتراب من كل مسلم عالم ببعض العلم التطبيقى أو رجل مال، وحثهما على عمل مثيل متجانس مع المشروع الدعوى ومتكامل معه، حتى ولو كان فيهما بعض الفسوق الذى تفصح عنه الإفتاءات الشرعية، من ترك صلاة، أو سفور زوجة وبنات، أو شرب خمر، أو لوثة ربا، مادام يؤمن بالله ورسوله، ويوالى مصالح الإسلام

(1) فتح البارى 5/ 401.

والمسلمين، وهذه النماذج كثير عددها جدًّا، ولذلك لم أستبعد أن يكون التوسع إلى مائة ضعف، وقضية فسوقهم بينهم وبين الله، ونعظهم بالرفق، ولنا وللدعوة وللأمة فوائد معاملهم وصناعاتهم، وهم مالكوها، ويرفلون بأرباحها، ليس من داع لإجفالهم بعرض مشروع معمل ضخم يساهمون فيه، أو بوقفها أو وقف بعضها، لكن فوائد وجودها لنا.

لكن هذا التحول لا يمكن أن يتم ما لم تضع تربيتنا الدعوية فى منهجيتها تسويغ التعاون مع هذه العناصر العاصية، ذلك أن النمط الوعظى فى مناهجنا، الواصف لدرجات الفضل العالية قد ولد فينا حساسية شديدة تجاه أصحاب النقص والعيوب والعصيان، وتلبسنا بنوع ترفع يضادد نمط الإصلاح المفترض فى الداعية، وكان الفقهاء يقولون بأن الداعية مثل طبيب يصبر على المعالجة، ومثل منتشل لساقط فى هوة يمد يده إليه لينقذه، لكننا أصبحنا نجفل من الفساق، وتطيب نفوسنا عند لقاء أمثالنا من أهل العفاف، حتى انغلقنا على مجتمع خاص بنا صغير وتركنا المجتمع العام يموج بعضه فى بعض ويوجهه علمانى وفاجر ورجل هزل ولهو، فى وقت تشير فيه مراقبة حركة الحياة إلى أن معظم الناس هم من أصحاب النقص، وأن أصحاب الدين المتين والالتزام الصارم قلة، كإبل مائة لا تجد فيها إلا راحلة واحدة، ومن هنا فإن التربية الدعوية الحاضرة مكلفة أن تضع فى منهجيتها ترويض الدعاة وإنزالهم من علياء المثاليات إلى مخالطةالناس، وعندئذ سنكتشف فى كل بلد ألوف رجال خلص من أصحاب العلم التطبيقى أو المال، يتحسرون مثل حسرتنا على أوضاع الأمة، لكنهم لا يعرفون التخطيط ولا قيادة أنفسهم، فنقدم لهم أنفسنا قادة، ونقدم لهم خطتنا، لنمشى معًا وإن صرعتهم الشهوات، لأن الفحص ينبئ عن عدم وجود شبهات، لكنها الغفلة وضغوط الحياة الاجتماعية والتقليد وآثار التربية التليفزيونية والمدرسية.

الأمر مثيل لواجب التربية الدعوية المعاصرة فى كسر الاستقلالية الحادة التى سيطرت على نفوس الدعاة فى العمل السياسى فلم يعودوا يتقبلون التعامل مع الحليف، ذلك أن الوضوح الإسلامى وصرامة حدود الحلال والحرام وبراءتنا فى زمن التلوث: جعل الدعوة تختار الاستقلال فى عملها، وصية من الإمام حسن البنا ﷺ ، وساعدت أوصاف سيد قطب ﷺ للمفاصلة والاستعلاء على مبالغة الدعاة فى الانتحاء والعزلة، فلما بدرت الحاجة فى بعض البلاد لدخول أحلاف: فشل الدعاة فى التعامل مع الحليف، وافتقدوا المرونة اللازمة لأنماط

التعامل السياسى معه، التى تحكمها قوانين المصالح، وسد الذرائع، وغض النظر، والتجاوز، والتسهيل، والعطاء بموازاة الأخذ.

وهذا المثل السياسى وإن حشر نفسه فى السياق بعفوية، إلا أنه جاء على قدر، إذ لابد للمشروع العلمى الصناعى من وجه سياسى يحميه ويحفظ حقوقه ومصالحه فى صورة ممارسة سياسية دعوية دائمة لا ترضى بالانزواء والتوارى، لأن مثل هذه الممارسة هى التى تقيم العلاقات، وبها تتضح الحقوق الدستورية وحقوق الإنسان، وتجلب نصرة المثيل والأطراف الأخرى، وتفرز عملاً دعائيًّا إعلاميًّا يخشاه الخصم والمنافس، ويوجد قاعدة وعى لدى الجمهور المؤيد بحركة للضغط لصالحنا، فتكون كتلة هذه المعطيات ضرورية للحفاظ على المشروع ولنموه وتطويره نوعيًّا.

بمعنى آخر : إننا- لإنجاح صناعتنا- نحتاج إلى غطاء سياسى يحميها، ويكون ذلك عبر عقد تحالفات مرحلية مع بعض الساسة الذين هم أطهر من غيرهم وأقرب لنا، وكذلك برفع شعار سياسى مرحلى نرشح فيه أنفسنا بأن نكون شركاء فى القرار السياسى فى كل دولة يكون عملنا الدعوى فيها قد توسع بكفاية، من دون التخلى عن الهدف الأمثل الذى نسعى إليه فى إقامة حكومات إسلامية.

وأما على صعيد السياسة العالمية ودورنا فى كسر حدة الغرور الأمريكى فإنى أرى أن التاريخ قد أعاد نفسه، ودار الزمان كما كان قبل قرن كامل، وأن علينا إحياء نظرية السلطان عبد الحميد فى تحالف الدولة العثمانية مع ألمانيا، وقد أتم ذلك، ومع اليابان، وقد سعى لذلك وعاكسته الأحداث، والآن تنضم الصين كقوة كبرى لها مستقبل مؤثر، ومن اللائق أن نطرح على ساسة الأمة الإسلامية أفكار التحالف مع ألمانيا وفرنسا بخاصة، وعموم الاتحاد الأوربى، ثم مع اليابان والصين وجنوب شرق آسيا، وأن ندع لجاننا السياسية ومراكزنا البحثية تصوغ المشروع مفصلاً مشروحًا مؤيدًا بالمنطق والبرهان وللتفلت من التفرد الأمريكى، وسياسهم ذلك إلى حد كبير فى حماية توجهنا الصناعى ضمن التوجه الصناعى العام الذى تريد الأمة الإسلامية أن تستدرك على ضعفها بواسطته.

obeikandl.com

لماذا هذا التحول ؟

ومن درج من الدعاة موعوظًا، وفهم من نفسه أنه هو والدعاة إخوانه حمائم مسجد: سيستغرب هذه الحماسة فى تحوير الأداء الدعوى إلى أداء علمى صناعى سياسى، ويظن ذلك تعطيلاً للدور الفكرى التربوى للدعوة الإسلامية.

وفى ظن هؤلاء صواب وخطأ معًا، فالمشروع فيه تحول وتحوير للأداء، لكن الخط الفكرى يبقى وسيلة لا لتحقيق هويتنا الإسلامية فقط، بل لقيادة التوجه العلمى الصناعى السياسى واستبناط تفاصيله ، سواء كفكر فى جانبه الشرعى الإيمانى، أو فكر يستنطق التاريخ والأدب وعلوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع، ليستخلص من كل ذلك رؤية شمولية للوصف الحضارى الإسلامى على نمط مقارب للرؤى الفلسفية التحليلية، بحيث لا تحكم مشروعنا الجبار نظرات جزئية أو ارتجالية أو وقتية أو محلية، وإنما توصف له أبعاد إستراتيجية عريضة، مع تبين عللها والمنطق الموجب لها، وفى هذا ما يوضح جليًّا أن مشروعنا وإن كان يتخذ الفيزياء أساسًا ويجسد معطياتها عبر فن هندسى صناعى، إلا أنه محتاج إلى الارتكاز المتكافئ على جميع العلوم التطبيقية والإنسانية فى عملية تكاملية، وليس بصحيح ما يظن المستعجل وغير الخبير من أن الولع الذى أبديناه بفيزياء الكم يعنى التنكر لبقية العلوم وتجاوزها، وقد فرغت الفلسفة واستقراءات عمليات التمدن من تقرير وحدة العلوم منذ زمن بعيد، ولا يصح النظر الجزئى أبدًا.

لكن الفكر لا حدود له، والمفكر فى نهم دائمًا، وتلك صفة فى الطبيعة البشرية ملحوظة، وما يزال الإغراء يجذب صاحب الفكر إلى مزيد توغل حتى يجد نفسه غارقًا فى الفكر والتأملات والافتراضات إلى حد يخل بالأداء العملى للمفكر، فيبدأ البعد عن الواقعية، ويكون الفصام مع الطائفة الأخرى العارية من الفكر بدل أن يتصافحا، ويقدم الفكر نفسه ويرشح رؤاه لقيادة العمليين الذين تضغط عليهم الضرورات ومحدودية الأدوات والوسائل .

هذه الحالة الفردية للمفكر يمكن أن تكون جماعية، بأن تتوغل الجماعة فى الفكر توغلاً عميقًا، وتستزيد منه على حساب الأداء العملى، فيكون الترهل الفكرى، وفرعه الترهل

التربوى، كناتجين للإفراط الزائد والسير غير المتكافئ، وهذا أمر مكروه فى الجماعات والمجتمعات مع ما فيه من لذة للمفكر الفرد.

سبب الكراهة أن لهذا النمط من التفكير الزائد إيحاءات نفسية خفية تتسرب تباعًا فى عملية بطيئة جدًّا، لكنها تتعاظم على المدى الزمنى الممتد، لتؤثر فى التكوين النفسى للجماعة، بحيث تميل فى اللاشعور إلى المبالغة فى السلم، واللين، والرفق، حتى تكون هى الطبيعة الغالبة، فإذا غزاها ظلم من بعد ذلك تكون بطيئة الرفض، متثاقلة فى الانتفاض والتمرد والثورة، أقرب إلى الاستخذاء والتأول.

لذلك لابد من قطع منابت هذه الأحسايس السلبية فى الجماعة، وبخاصة أننا فى عصر العولمة التى تسحق الضعيف، وعصر تبنى هذه العولمة للقضية اليهودية وفرضها لتربية التطبيع، وقطع هذه الأحاسيس السلبية لا يكون إلا بالممارسة الصناعية المعتمدة على العلم؛ لأن فى الحركة الهندسية المصاحبة للعملية الصناعية إيحاءات إيجابية متنوعة تحفظ طبيعة العنفوان فى النفس البشرية، وفى عامل السرعة المصاحب للتصنيع ودوران دواليب الحديد الثقيل أنواع من الإيحاء بالصرامة المضادة لإيحاء اللين، وإيحاء باستيفاء الحق المضاد للرفق، وتكون شخصية العلمى الصناعى الهندسى أقرب إلى المغالبة والتحدى والقتال، مع نمط تنظيمى دقيق، لدقة المنظومات الهندسية التى تعتمدها الصناعة والإيحاء المترسب عبر مراقبتها والامتزاج العاطفى بها لمن يطول دهره معها، ثم مع نمط إبداعى تجديدى، لاحتياج الصناعة إلى التطوير الدائم وحصول ذلك عبر التمرد على النمطية المستمرة.

لمثل هذه الظواهر التى يستقرؤها الفاحص لقصص الحضارات والتمدن يصبح من اللازم فى هذا الزمن المعقد الذى لا يرحم أحد فيه الضعيف أن تطور التربية الدعوية وسيلتها فى حفظ الروح الجهادية للجماعة وللأمة معًا، إذا ما عادت التربية التقنية تكفى، ولا التأجيج العاطفى وسرد القصص والأشعار، بل لابد من مجاراة الأحداث، والتحول بالجماعة إلى تنفيذ المشروع العلمى الصناعى التجارى، لتتاح فرصة الترسب النامى للمعانى الإيجابية وتصاعدها إلى درجة التأثير السياسى بالسلم إذا أُتيح ذلك، أو التأثير الجهادى بالقوة والدفاع إذا منع الظالمون باب السلم، وهذا يعنى اتخاذنا العملية العلمية الصناعية كمنهج لتربية

الجماعة والأمة على المعانى الإيجابية، وبذلك يغدو المشروع العلمى الصناعى فقرة بارزة فى منهجية التربية الدعوية، مدعومة بعطاء معان إيجابية أخرى تولدها الممارسة السياسية الحامية للمشروع العلمى الصناعى.

ومما نادى به الإمام البنا رحمه الله : «التحوّل إلى الصناعة فورًا، فحرام على أمة تقرأ كتاب الله من الثناء على داود عليه السلام : «وألنا له الحديد»، ثم لا يكون فيها مسبك عظيم، ولا مصنع كامل للأدوات المعدنية» (1).

نعم، هو يخاطب الحكومات بذلك، ولكن ألا نعظ أنفسنا بهذه الموعظة أيضًا ونحن أتباعه؟

وهذا القول يكشف عن أصالة هذا التوجه الصناعى فى فقه الدعوة، وإنما أنا أحييه فقط ولا أبتدعه.

والموضوع يزداد وضوحًا إذا رجعنا ثانية إلى تحليل الحديث الصحيح الذى اعتبرناه لمسة حضارية إسلامية مهمة، وهو قوله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

قال ابن حجر: «قال ابن المنير: أشار البخارى إلى إباحة الزرع وأن من نهى عنه ــ كما ورد عن عمر ــ فمحله ما إذا شغل الحرث عن الحرب ونحوه من الأمور المطلوبة، وعلى ذلك يحمل حديث أبى أمامة المذكور فى الباب الذى بعده»، أى لما رأى شيئًا من آلة الحرث فقال: سمعت النبى ﷺ يقول: « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل».

قال ابن حجر مستطردًا فى شرح الحديث الأول: «وفى الحديث فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض، ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها. وفى فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة، وحمل ما ورد من التنفير عن ذلك على ما إذا شغل عن أمر الدين».

قال: «وعن الداودى: هذا لمن يقرب من العدو، فإنه إذا اشتغل بالحرث لا يشتغل بالفروسية، فيتأسد عليه العدو، فحقهم أن يشتغلوا بالفروسية، وعلى غيرهم إمدادهم بما يحتاجون إليه» (2).

(1) رسالة النظام الاقتصادى للإمام ضمن مجموعة الرسائل/ 258 لكن نقلته عن الفكر السياسى لإبراهيم غانم.
(2) فتح البارى 5/ 401، 402.

وهو توجيه حسن، واستثمارًا لهذا الكلام يمكننا وضع قاعدة عامة: أن الزراعة والتجارة حلال بيّن، لكن لأن من شأن الإنسان الاستزادة، ومن طبع النفس الغفلة، فإن من يمارسها مدعو للتبرع ببعض موارده وأرباحه بالمقدار الذى تتقن به جماعة من المسلمين فن الفروسية وتقوم بالجهاد وإبقاء معناه حيًّا، وإذا كان المسلم العامى لا يفقه مثل هذا التقعيد، فإن الدعاة أحرى أن يفهموه ويجتثوا عرق الطمع من أعماق نفوسهم ويفرضوا على أموالهم نسبة مكافئة لعملية الجهاد، ليخرجوا من الخلاف والشبهة إلى الحل والفضل.

وبخاصة أن وضع العولمة جعل الأمة الإسلامية كلها منكشفة وينطبق عليها قول الداودى فى أنها قريبة من العدو ويجب أن تشتغل بالفروسية، ونظرة إلى حرب الخليج وآثارها تشهد بذلك.

لكن هذه الملاحظة النبوية الكريمة هى من جملة الرصد الإسلامى لحركة الحياة.

قال ابن حجر عن ابن التين شارح البخارى:

«هذا من إخباره ﷺ بالمغيبات، لأن المشاهد الآن أن أكثر الظلم إنما هو على أهل الحرث»[1].

فهذه ظاهرة حيوية رصدها النبى ﷺ والفقهاء من بعده: أن الأمة الزراعية مستضعفة تستأسد عليها أمم الصناعة، وأن فى تعاهد الزرع استرخاء نفسى معنوى يضاد متطلبات الجهاد، فيترسب ذلك عبر الزمن وتعاقب الأجيال، حتى ينغلق أمر أمة الزراعة على الاستكانة وروح المسالمة والتنازل عن الحقوق، فتتحرك أطماع أمم الصناعة والتجارة، بما عندها من محركات نفسية، تدفع إلى الطموح والغلبة على الأسواق وضمان الغذاء من نتاج الأمم الزراعية، فتكون الحرب القصيرة الأجل؛ لانعدام التكافؤ، ويكون استخذاء الضعيف المزارع، كالذى كان من خبر الاستعمار، وهذه اللمحة هى جزء من مسلسل الحركة الذاتية الطبيعية الاستطرادية للحياة حين تسيرها العفوية تبعًا لمحصلات القوى ومعادلات الفيزياء، ليس إلا، والنظر التخطيس الإستراتيجى بالعين الثاقبة الدارسة لتقلبات التاريخ هو وحده الذى يستدرك استدراكًا مبكرًا فيعصم من إيحاءات السلم الزراعية بممارسة الفن الصناعى

(1) فتح البارى 5/ 402.

والتجارى، وعندى أن الأمم إذا مالت إلى الفكر المحض وتضخم جانبه فيها فإن الترهل الفكرى آنذاك يوحى بإيحاء السلم أيضًا، وتكون النتيجة مماثلة، ولذلك فإن الدعوة الإسلامية يمكن أن تزداد شهيتها الفكرية والتربوية على حساب خططها التطبيقية وممارستها التجارية والصناعية، فتجنح للسلم إذ الساحة يملكها القوى، فتستضعف وتصيبها المحن المتلاحقة. لذلك فإن العمل التجارى الذى أدعو إليه وأحلِّيه للدعاة، وما يردف ذلك من صناعة ومواكبة للعلوم التطبيقية وربط اكتشافاتها بخطة التمدن والتطور ونقل نتائجها إلى المحيط الدعوى: هو الكفيل ببقاء الدعوة الإسلامية قوية فى ساحة الأقوياء، وهو الذى منحها موضع قدم فى عرصة الحياة، وإلا فإنها تؤكل، وتستضعف، وتغزى، وتستأصل، ولهذا فإن مفهومى لمنهجية التربية الدعوية: أن تتبنى خطتنا التربوية إحداث وتربية جيل عريض من الدعاة التجار والصناعيين، وجيل آخر من علماء الفيزياء والعلوم التطبيقية يتولون إسالة الحقائق العلمية ووضعها فى الاستخدام الدعوى عبر الطرائق المدنية الحضارية المتسارعة فى تطورها ونضوجها واختراعها، واعتبار ذلك هو الجزء الأهم فى خطة الأمن الدعوى الإستراتيجى وأحدّ أسلحة البقاء فى معركة الحياة فى أيام العولمة، وهذا ما يجعل الترويج الصناعى التجارى العلمى معلمًا بارزًا من معالم منهجية التربية الدعوية المعاصرة الرانية إلى ضمان التأثير فى المستقبل، وأى استمرار فى خط الدروشة المجردة سيكون انتحارًا بطيئًا تشطب الدعوة بها على نفسها عبر ترويض بطىء يتثاقل بالدعاة إلى الأرض فى زمن خطر تريد أمريكا أن تنفرد فيه بالقرار وتحتكر حق التوكل عن الإنسانية كلها، ثم فى زمن ماكر يريد اليهود فيه تدجين الجيل الإسلامى عبر التطبيع، وجسامة الخطر لا توازيها إلا انتفاضة دعوية مدنية حضارية: العلم، والمال، والآلة: أسلحتها الثلاثة العاصمة، ويكون أدب الحث معينًا، والتربية المعنوية مديمة، وأما مجرد التربية بمعناها القديم الأول فما عادت تكافئ الوضع التفوقى الحاضر لتيار الكفر والفسوق والعصيان.

ولا يتجه هنا قول من يقول: إن الفكر هو قائد الحرية ونفضات التحدى، فإن ذلك صحيح جدًّا فى حالته الوسطى، وقد دأبنا خلال عرض فقه الدعوة على حث الدعاة على التزام الفكر، والإبداع فيه بالاجتهاد، ولكن الشىء إذا زاد عن حده فرضت الزيادة ضريبة، والكلام هنا عن إفراط فى الفكر واكتيال كثير من دون موازنة مع الجانب العملى، فيتولد

الاسترخاء والتثاقل والكسل ودغدغة الحاجات بلذة الفكر ونشوة تجديد صياغاته وتكرارها، فتتولد حالة الترهل الفكرى، وهى التى نعيبها لا أصل الفكر، وتتضاعف مراحل الترهل فى أعقاب الهزائم وأيام اليأس بخاصة، لأن المفكر يجد سلوته عن الحزن فى الفكر، ويستروح به، فيثاقل إلى الأرض مع مرور الأيام، وهذا ما نخاف أن يحدث فى ديار دعوة الإسلام بعد هيمنة العولمة وخطة السلام اليهودى، والظروف اليوم مؤهلة لحصول ترهل مرهق، وليس الاحتياط غير هذا التوجه العلمى الصناعى الذى يبقى جذوات النفوس متقدة ويوقظ الكوامن الإيجابية ويذكيها ويطورها عبر الانفعال الروحى المعنوى اليومى بالمنهجية الفيزياوية وتعميق المعرفة بمنظومة أنواع المادة وخصائصها وتصاعدها الإلكترونى، ومنظومة الطاقات والطبائع الفوتونية، ثم منظومة الهندسة التنفيذية بأنماطها الكثيرة المتجددة التى لا حصر لعددها، والتى تحول الحقيقة العلمية إلى استخدام ومنتوج، ثم بمنظومة الإدارة والتسويق وتجديد التمويل، بحيث يترسب الإيجاب فى اللاشعور عبر منهجية تناول جميع هذه المنظومات والتعامل معها، وتتربى النفس الفاعلة المبادرة عن طريق انعكاسات المحيط وإلقاءات الممارسة، وهى النفس المؤهلة للإبداع، ولتلمس طريقها إلى الحرية والعزة عند المحن والفتن والهزائم ومداهمات العدو، فإذا استمر فكرنا الإسلامى فى عطائه، وفق النمط الأوسط الذى لا إفراط فيه، فإن هذه النفس المبدعة العاشقة للحرية تتحول من مجرد نفس ثورية كما هى عند الأمم الصناعية، إلى نفس جهادية على هدى الإيمان، بحيث يكون ديدنها تصحيح المعادلة والمسار، لا الانتقام والثأر، وتعود سريعة إلى منهجية الاستعمار الإيمانى للأرض، وهو ما أرشح دعوة الإسلام العالمية المعاصرة له، تحت شعار: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:165].

وبهذا يتضح وفاؤنا للفكر، ولمنهجية تربية الدعاة على أحكام الشرع والمواعظ الإيمانية، وما نحن بأهل تنكر لها أو زهد فيها، ولكنه تنبيه إلى أن الطريقة التلقينية السماعية يمكن أن يتضاعف تأثيرها إلى أضعاف كثيرة بقذف الدعاة فى المعمعة الصناعية، لأن الصناعة تحتاج القاعدة العلمية، فتكون معمعة علمية أخرى، ثم تحتاج التجارة، للتمويل والتسويق وإعادة

التمويل، فتكون معمعة تجارية، ثم تحتاج شغلاً سياسيًّا، من أجل الحماية وحفظ الحقوق وإدامة الحريات، فتكون معمعة سياسية، ثم تحتاج فكرًا شرعيًّا، لتأصيل المسيرة وحفظها من الغلواء وتثبيتها على طريق الاستعمار الإيمانى للأرض، فتكون معمعة فكرية تربوية خامسة، وعن طريق اجتماع هذه الملاحم الخمس وإيحاءاتها النفسية تتم التربية الدعوية وتنتج النماذج القيادية المؤهلة لقيادة المستضعفين عبر الجهاد الراشد الواعى الحكيم إلى حياة العزة، ومن ثم كان تصورنا فى وجوب أن تكون هذه الميادين الخمسة كانًا خمسة أساسية فى منهجية التربية الدعوية المبتغاة فى صورتها المطورة المستقبلية، وأن تكون خمسة أرهاط دعوية فى عرصة واحدة، بعضها يردف بعضًا ويرفده، وما هما جيلان فقط كما قلت سابقًا، بل خمسة تندمج فى مشروع جبار، فتكون فنون وعواطف وتجارب وأسرار كل رهط فى خمدة وتربية الأرهاط الأخرى.

والأداء المنتظر من رجال الأعمال فى إسناد التوجه الصناعى لا يكمن فى التسويق والعمليات التجارية فقط، بل فى خدمتين أخريين توازيانه.

* **الأولى:** فى استثمار علاقات لهم مفترضة مع طبقة عريضة من الممولين ورجال البنوك، والشركات المالية وأمناء المحافظ الاستثمارية ومدراء الجمعيات التعاونية وأمثالهم، بحيث تتوسع عن طريقهم رءوس الأموال المرصودة للمشاريع الصناعية، وتتسهل مرابحات وضمانات مصرفية وكفالات ومشاركات، ثم تتفتح أبواب تصريف دائمة للمنتجات للاستهلاك المحلى أو التصدير.

* **والثانية:** فى إجادة استلهام المعارض التجارية والصناعية العالمية، كمعارض أوربا واليابان والصين، فإن حضورها، والتأمل الطويل فى المعروضات: يوسع آفاق النظر، ويمد رجل الأعمال المسلم بخبرة عملية تتماشى مع آخر التطورات الفنية، ولها إيحاء من نوع خاص لا يتاح التمتع به إلا بواسطتها، بل المعارض مدرسة متكاملة، وتلخيص لخواطر المهندسين والمخترعين كافة، وتركيز لشتات الإبداع المتناثر، وإهداء مجانى لخارطة التوغل على طبق من ذهب، ومن أكبر التقصيرات التى ابتلى بها الدعاة أنهم لا يوفدون رُسلاً منهم إلى هذه المعارض يروون لهم إذا رجعوا ما فيها من علم وخطط وفنون وتدبيرات حكيمة ولمسات

مدنية وحضارية، وأنا أرى أنه لو حصل منا حضور متوال منهجى لهذه المعارض فإن آثارًا إيجابية كثيرة سوف تظهر لا فى المحيط الاقتصادى الإسلامى فقط بل فى عموم الحياة الدعوية، بحيث يكون ذاك الحضور موردًا ثريًّا من موارد التعرف على منهجية التربية الدعوية وتطبيقات الإبداع وممارسة التطوير الريادى، ولكنا قوم عزلنا أنفسنا عن الحياة العامة، فتثاقلنا، والتصحيح واجب، وطريقه قريب.

وأكاد أرى من وراء الستار مقلدًا يتململ فيقول: هذه الطرق ستسبب ضعفًا فى الدعاة، وانشغالاً بالتجارة والصناعة والسياسة.. والمعارض.

وهذا من الأخذ بالصور والمبانى لا الحقائق والمعانى، إذ أَمَا يكفيه أن يحقق هؤلاء الدعاة مصالح الأمة وتتقوى شخصياتهم ومعنوياتهم وأشواقهم الجهادية، وينتظم أداؤهم؟ إلا أن يحضر أحدهم مخيمًا عاشرًا ليوصف بالجودة والنشاط والالتزام؟ ألا تكفيه تسعة مخيمات فى مرحلته الأولى أيام شبابه؟ وإلا أن يحضر الدرس فى المسجد مع الحاضرين ليكون ثقة. ألا يكفيه ما اكتال من قبل وتطلق سراحه ليصول ويجول فى درب العزة والتمكين؟

وإلا أن يلتزم خمسين اجتماعًا أسريًّا فى السنة بعد أن حضر مائتين مثلها؟ ألا يسوغ أن تثق بالقاعدة التربوية التى تم تأسيسها فيه خلال السنوات الأولى من التحاقه ثم تكتفى معه بلقاء شهرى وتدعه يبدع فى مزاحمة يهود والتمرد على العلمانية والعولمة؟

الكثير من الدعاة بحاجة فى الحقيقة إلى تغيير مقاييس الأداء القديمة من أجل أن يتاح لهم فهم التخطيط التربوى الجديد الذى نشير به.

وأنا ما أردت أن أعتدى عليك بمثل هذه المفاهيم الجريئة، ولا النيل من شرف زراعة تعتقد بركتها، فإنى معك فى اعتقادك، ولا داعى للتوتر، وليكن خاطرك طيبًا إن شاء الله، وإنما الترويج لفكرتى الصناعية اقتضى نوع حماسة ودعاية صدرت مصدر التهوين من شأن الزراعة، وهى النعمة المحترمة التى يلزمنا أن نشكرها، إنما أردت للدعاة شعور الصرامة التى تكون مع استعمال الحديد والآلة الدائرة، وشعور النظام الذى يكون مع التقدير الهندسى الذى تقتضيه الصناعة، وشعور السرعة والحسم الذى يكون مع سرعة الإنتاج، وشعور إيجاد شىء كبير من مكونات صغيرة، وأما المزارع فبطىء مسرف فى الانتظار، ويتعامل مع نبت ليّن

تميل به الريح، وداجن سلس، فتغدو صفة الرحمة والسلام ضعفًا أمام ذئاب عالمية ولئام، إذ الغلظة صفة خوطب بها نبيه الكريم فى أكثر من موضع فى القرآن فى التعامل مع الكفار والمنافقين.

فإن لم تكن ثمّ صناعة فليس أقل من تعدين فيه استخراج ما خلق الله من معادن، وسيكون مع هدير البلدوزرات وأنواع المكنات ونار الأفران نوع شعور إيجابى حار يقترب من إيحاء الصناعة.

ودعنى ألاحقك ولا أتيح لك مهربا، فأزعم أنه إن لم يُتَح ذلك فدونك مقالع الحَجَر وضرب الأزاميل لقِطع الحَجَر والرخام تنحتها وتجعل لها زوايا وأضلاعًا من أجل أن تستخدم فى البناء، فتكون ضربات المطارق وأزيز المناشير موحيةً عَزمًا مثل حَزم الصناعة، وانظر الفارق لو أنك فعلت ذلك، فإنك لو أتممت نحت ألف حجر يُبنى بها مسجد أو جسر أو بيت يدوم مئات السنين يعظ أجيال الناظرين بجمالٍ ومتانة وحُسن نظام، بينما الفلاح يُقدم طعامًا يُهضم بعد سويعات وحليبًا يُشرب ثم ينساه الناسون ولربما لا يشكرون.

فإن لم يكن الرخام فليس أقل من ورشة حدادة أو نجارة تملأ الأرض رنينًا وفرقعة بعدما امتلأت رخاوة وتطريبًا وتنويمًا، ونحن دعوة كثر فيها المهندسون وعلماء الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا، وتؤهلنا ظروفنا لهذه الطفرة الصناعية التى لا نريدها لموسم بل كخطة إستراتيجية بعيدة المدى.

فلا يستفزنك تركيز على ذكر الصناعة، فإنا لسنا نزهد بزراعة، ونعلم أن فيها رغم الصبر معنى نمو شيء صغير إلى كبير كثير، فإنا أردنا بالصناعة الرمز إلى الاختراع والتكيّف، ولا بأس أن يكون دعاة فى الزراعة، وأن يُتاجروا فى المنتج الزراعى، وأن يقوموا بتصنيع المنتج الزراعى، وإنما أردت الإشارة إلى أن التفوق الصناعى الغربى والشرقى جعلنا كأمة إسلامية مستهلكة أو زراعية، وهذا له مردود سلبى على المدى الطويل فى التنافس الحضارى يجعلنا فى الموقف الأضعف، وبلا أحاسيس تحدٍّ ورفض ومقاومة، بينما العالم الكافر قد حقق التفوق من بابٍ، وأدام أحاسيسه الإيجابية من بابٍ آخر، فيلزم أن نستدرك رغم فوات الأوان، إذ بعض الشرّ أهون من بعض، فإذا أقررنا بأنه يلزمنا ذلك كأمة فيجب أن نكون نحن الدعاة أهل

المبادرة، لأننا نقود هذه الأمة، والحكومات مسيّبة، بل خطط التطبيع التى تسلكها تريد أن تجعل السيطرة لليهود الذين هم أهل صناعة ويرفلون بإيجابياتها المعنوية، ومن هنا صارت هذه المهمة دعوية من أجل مردودها التربوى على المستوى الحضارى وآثارها الإستراتيجية فى الصراع مع العدو، فافهم القصد رحمك الله، وأنشد نشيد التنادى للصناعة، ولن تجدنا زاهدين بداعية مزارع أسره القدَر إليها، ولا نافين أنواعًا من الخير فى المجتمعات الزراعية.

وبهذا يزول الاستغراب فى إقحام الصناعة فى فقه الدعوة، وإن الحياة اليوم يلفّها تعقيد مدنى معتمد على الأداء الفنى التقنى، ويؤججها صراع فكرى سياسى وتنافس مالى اقتصادى عنيف، وكأن ممارسة الصناعة تزيد الشخص جدية وتمنحه الذكاء وتجعله فى معمعة الصراع تلقائيًّا بدون موعظة وتحريك، ومثل ذلك أجواء التجارة والأسفار المبرمجة الهادفة والعلاقات المشتبكة اللازمة لها، مما يؤدى إلى زيادة النبض فى الحياة الدعوية، بينما تقترب أجواء الزراعة والأرياف بأصحابها من الوداعة والقناعة والرتابة والسكون والعزلة، وتقل المشاركة الفكرية والسياسية، ومثل ذلك الوظائف الحكومية الكتابية فى المستويات الدنيا، ولذلك فإنى أميل إلى تصويب فهم المحدّثين لهذا الأمر، وإشارة الداودى إلى الفروسية صحيحة، ونستطيع اقتباسها وقياس عموم الواجب الدعوى فى التنافس السياسى والمدنى والعلمى عيها، وسوف يدّخر القَدَر من يرعى الغُنيمات ويزرع، ولن يجوع الناس، ولا يريد إحياء فقه الدعوة ومنهج التربية الدعوى أن يمنع عن الأمة حنطةً ولبَنًا وبقولا، كما أننا لا ننكر أن البيئات الزراعية أنتجت أيضًا من العلماء، والدعاة الشجعان أعدادًا كبيرة، وإنما نتكلم عن ظاهرة عامة.

ثم أرى معترضًا آخر يتخوف أن تفسد هذه الخطط الدعاة، ويتوقع أن تنغلق قلوب هؤلاء الدعاة، وتجرفهم الدنيا.

وهو تخوف له وجه لو كنا نبعث هؤلاء فرادى، لكن صفة الجماعية والتنفيذ المشترك يتيح بحمد الله التناصح والتساند المعنوى، وتسرى عدوى ثبات المخلصين إلى من يخالطهم، فيكون الصناعى والتاجر والسياسى بأمان إن شاء الله، وقصص الضعف والتفلت التى يرويها المتخوفون إنما كانت فى بدايات مثل هذه الممارسات، حيث لم تكن الكثافة العددية

وسيلة حماية، وكان أحدهم يقتحم هذه الميادين باجتهاده الشخصى من دون تخطيط جماعى، فكانت الوساوس تغزوه لانفراده، فيتملص، وتغريه المغريات فتصرعه، وما ندعو إليه إنما هو نمط آخر، فيه جماعية، وفيه تخطيط، وتحميه تربية، وتشد الجميع غاية كبرى يسعون لها تبقى قلوبهم حية وعواطفهم عامرة، ثم هناك تدوين للفقه الدعوى فيما هم فيه من الممارسة الدنيوية وتعليمهم كيفية ليّها وتغيير وجهتها نحو الأخروية، فى احتياطات أخرى لم تكن حين ابتدر زيد وارتجل عمرو، فضاعا.

وليتذكر المقلدون أنهم اليوم يعيشون عصر الإنترنت ومائة قناة فضائية غازية ومليون طائر تنقل المسافرين إلى أقصى الأرض فى سويعات، فإما أن يوجدوا شغل خير لإخوانهم الدعاة يعصمهم من عدوى السوء، أو هى الأخرى، والعزلة التربوية ما عادت ممكنة، فإن أبعد ثمراتها أن تجعل فتيانك حمائم مساجد، وهذا زمن كثرت فيه الصقور، ونعقت كثيرًا فيه البُوم، وأخشى أن يتطاير الريش بضرباتها إن لم تنفجر الدماء.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

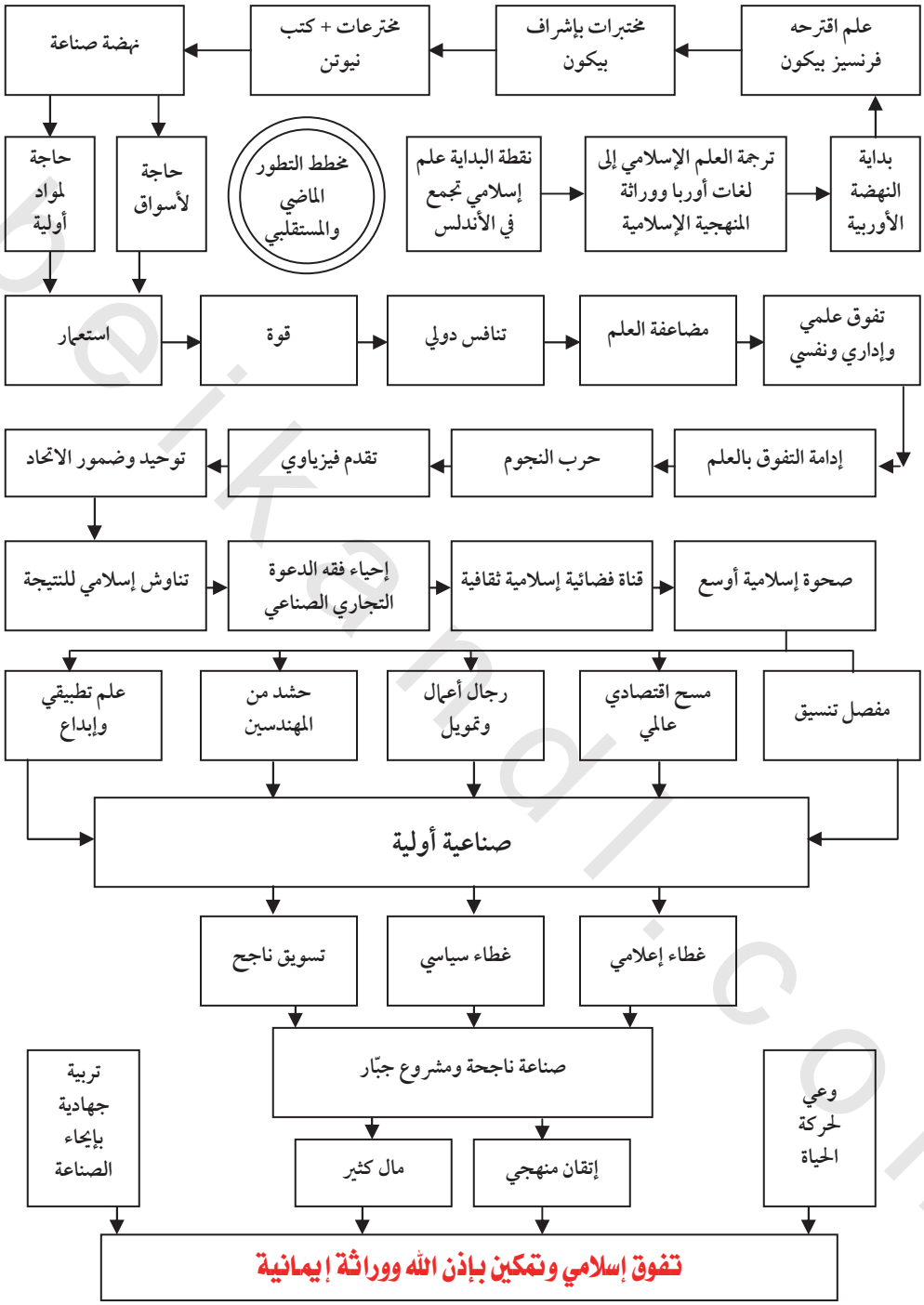
علم اقترحه فرنسيز بيكون
مختبرات بإشراف بيكون
مخترعات + كتب نيوتن
نهضة صناعة
بداية النهضة الأوربية
ترجمة العلم الإسلامي إلى لغات أوربا ووراثة المنهجية الإسلامية
نقطة البداية علم إسلامي تجمع في الأندلس
مخطط التطور الماضي والمستقبلي
حاجة لأسواق
حاجة لمواد أولية
تفوق علمي وإداري ونفسي
مضاعفة العلم
تنافس دولي
قوة
استعمار
إدامة التفوق بالعلم
حرب النجوم
تقدم فيزياوي
توحيد وضمور الاتحاد
صحوة إسلامية أوسع
قناة فضائية إسلامية ثقافية
إحياء فقه الدعوة التجاري الصناعي
تناوش إسلامي للنتيجة
مفصل تنسيق
مسح اقتصادي عالمي
رجال أعمال وتمويل
حشد من المهندسين
علم تطبيقي وإبداع
صناعية أولية
غطاء إعلامي
غطاء سياسي
تسويق ناجح
صناعة ناجحة ومشروع جبّار
وعي لحركة الحياة
إتقان منهجي
مال كثير
تربية جهادية بإيحاء الصناعة
تفوق إسلامي وتمكين بإذن الله ووراثة إيمانية

والله ما أخطأ رسول الله ﷺ حين رأى الذل يلوح بين لمعان سكة آلة الحرث، لأن الفلاح يصير طويلاً يراقب نمو زرعه خلية بعد خلية، فى عملية بطيئة جدًّا، حتى يظن الظان أنه ما ثم نمو، وهذه المراقبة المسترسلة منه للنمو البطىء تجعله مسترسلاً فى أموره الأخرى أيضًا، بطىء الرفض، بطىء التحدى، بطىء النفرة، فيستخذى لغاز وظالم وصناعى وصاحب مال، ويكون داجنًا.

والخشية اليوم أن يحل بدارنا التدجين، يؤدى إليه إفراط الفكر، وإفراط التلقين، والانزواء، والانكفاء، وترك قيصر يرفل بالمال، وبفيزياء الكم، وبالحديد، ونكتفى أن نتوهم أننا نلوذ بالله فى المساجد، كأن الله لا يعيذ مروض إلكترون، وأو طالب مليون أو صانع كمبيوتون.

إن تهمة التنكر للفكر منفية عنا أصلاً، وعن هذا المشروع الصناعى؛ لأننا حين تكلمنا آنفًا عن تطور الفيزياء، وانتهينا إلى ضرورة أن تتبنى الدعوة الإسلامية تطوير فيزياء الكم أو السير بموازاتها على الأقل، لفتحها باب التوحيد – استدركنا، فقلنا فى بداية استدراكنا: إن العلم لايبقى عائمًا، بل لابد لنا إن أردنا تطويره واستثماره أن ندعه يتفاعل مع الواقع، لينمو وكان طريق التفاعل الذى اقترحناه: الصناعة، التى استلزمت بدورها سياسة وتجارة. فإذا ربطنا هذه النهاية بالبداية التى جعلنا العلم فيها مدخلاً لإثبات التوحيد والإيمان، وعلمنا أن ثبوت التوحيد هو ثبوت لجميع المبحث الشرعى وحقائقه، التى تثبت بالتالى صحة مقولات الفكر الإسلامى ورؤاه الحضارية: عادت الصناعة بدورها مدخلاً للفكر؛ لأنها هى التى تخرجه من حالته العائمة إلى الاندماج والارتباط مع حاجات الحياة ومتطلبات المدنية، والعلم لا يتجزأ ولا يتبعض، بل هو وحدة واحدة وكتلة مندمجة، ولا تستطيع تقعيد الظواهر الفيزياوية مثلا بدون المنطق العقلانى، والمكنة اللغوية، والحقائق الرياضية، واللمسة الفنية، وحفظ الحقوق، ومراعاة الأخلاق، وتمييز أحاسيس النفس البشرية بالتزام الزكى منها وهدر الفجورى، ومباحث استخدام الطاقة النووية مثل واضح لهذا الارتباط بين الفيزياء والأخلاق والحقوق وطبائع النفس، ومثلها مباحث استثمار الخوارط الجينية، وبذلك تعود الصناعة مصدر تجويد للفكر، وتبرأ أن تكون مزاحمة له.

obeikandi.com

ولا يتجه اعتراض من يعترض هنا بأن الصناعة قد تكون مدرجًا للفكر بين أهلها فقط من ممارسيها، من بين فيزياوى ومهندس وفنى وممول ومدير ومسوق، ترتقى بهم، ولكن عموم الدعاة لا يناهم ذلك ممن لم يدفعهم القدر إلى أن يكونوا ضمن هؤلاء. وسبب نفينا وحسن ظننا بالصناعة والصناعيين والتجار والساسة وعلماء العلوم التطبيقية – أن العدوى الفكرية والأخلاقية والنفسية سنة خَلقية، وظاهرة اجتماعية، تجعل العلم يشع من العالم، ومن الحار إلى البارد كما قالت الفيزياء، ومن الملىء إلى الفارغ، فيحصل عن طريق الحياة الدعوية المختلطة ترويج أنواع من المردود الإيجابى الفكرى والمعنوى فى الجماعة، فإن لم يتم ذلك بصورة قوية مميزة – تولت الظاهرة القيادية الكونية ذلك وتكفلت به، إذ مدار الحياة والكون وسير المخلوقات على وجود قائد ومقود، والقائد الثابت القدم الراسخ القلب الإيجابى المبدع المبادر المجاهد يثبت بثباته رهط معه، بموجب قانون الولاء، فتظل النفوس متقدة، نفوس الجميع، وتبقى جذوة الجهاد والعناد والتحدى، فيحصل المقصود، ويوم يتجاوز مشروعنا الجبار مرحلة البداية، سينتصب كل مشارك فيه بمثابة قائد لمن هم خارجه، فتكون قيادة جماعية قوامها عشرة آلاف قائد أو عشرين، على المدى العالمى، يقودون بقية الدعاة والجمهور الإسلامى المليونى العدد إلى معانى الخير الإيجابية كلها، وتتحقق حياة العزة والحرية، ونكون عند حسن ظن نبينا ﷺ الذى رأى آلة الحرث، فلاح له شبح الذى يختبىء خلفها، فتخوف، وقد ألجأتمونا إلى إطالة، إذ الحر تكفيه الإشارة، ولا يعنى هذا الكلام أبدا تصويب النخبوية، وأن الاختيار الدعوى ينبغى أن يتوجه نحو الاكتفاء بالنخبة العالية المستوى المؤهلة لهذا الأداء الصناعى ومقدماته وتوابعه، بل دعوتنا رحبة المكان تسع كل مسلم، ويجب أن تكون هكذا، وقد عقدنا فصلاً آخر فى نقض النخبوية، لكننا نشير إلى الظاهرة القيادية، وأنها من سنن الحياة، وأنها تتكفل بموقف الجمهور عبر الولاء والعدوى والإشعاع.

* إن البعيد عن فهم هذه المعانى يُلزمنا بما لا يلزم، ويعترض متخيلاً أن الإيحاء التربوى الإيجابى للصناعة إنما يقتصر على رجل الصناعة أو العمال الذين معه، لذلك يقلل من أثر هذا الإيحاء فى العملية التربوية، مستدلاً باستحالة ممارسة جميع الدعاة للعملية الصناعية.

وهذا توهّم سببه ضعف التأمل المتأنى لما نقول ولطبيعة الحياة الاجتماعية، لأن إيحاء الصناعة يتعدى، وما هو بمقصور، وعدواه واسعة، وهو فى ذلك يشبه تمامًا إيحاء العلم

الشرعى وسريان آثاره فى المجتمع الكبير، فإن الدعوة الإسلامية لا تستطيع أبدًا جعل كل الدعاة والقريبين منهم من أهل النصرة والتأييد علماء يتقنون فهم مدارك الشرع وموارد الفقه، لاختلاف الفرص والعقول والاستعدادات، ولكن هذا المجتمع الدعوى يكفيه أن يوجد فيه عدد من علماء الشرع، يظاهرهم عدد من أهل الزهد وكثرة العبادة والمواعظ، مع عدد ممن يتقن صنعة الفكر المقارن والتأليف والكتابة، يسنده مشاعر واحد ربما، ليكون المجتمع الدعوى أقرب إلى العلم، ويعيش الدعاة فى رحاب التقوى ومكارم الخلاق والحماسة وروح الجهاد والبذل، ودعوة يبلغ عدد منتسبيها وأنصارها مئات ألوف ربما يكفى حالها التربوى عشرة فقط من العلماء الكبار، يدور فى فلكهم مائة إمام مسجد وواعظ وخطيب جمعة ... لأحدهم ربع علم الواحد من أولئك العشرة أو عُشر علمه، لأن الفتوى تعصم، والتقوى لها عدوى، ويمكن أن يعيش الدعاة ومن يدور حولهم حياة أقرب إلى الجدية والوقوف عند معالم القرآن والسنة والبعد عن البدعة والإفراط والغلو والتفريط، لأن انتصاب القدوات يردع الضعيف فى الساعة الشيطانية عن اقتراف ما لا يليق، بل يدعه يهابهم وإن لم ينطقوا، وعلى مثل هذه الظاهرة قامت الحياة الإسلامية السليمة منذ صدر الإسلام حتى زماننا هذا، وما كان كل أهل الإسلام علماء، ورجال الصناعة ومَن معهم من مهندس وعامل فنى أمرهم مماثل، فإن النبض الجهادى الذى تمنحه لهم الصناعة بالإيحاء سيجعل منهم قدوات سامقة فى المجتمع وإن لم ينطقوا كثيرًا، وستكون معانى التحدى عامرة وافرة، وإن مائة من رجال الصناعة الدعاة، يتحلق حولهم ألف مهندس ممارس لصناعة إسلامية، وألف عامل فنى واع: بإمكانهم أن يتكفلوا بإحياء الروح الجهادية فى مجتمع دعوى تعداده مئات ألوف، إذ النفس الإنسانية مجبولة على الاقتباس، والولاء للأقوى، والتعلق بأهل الريادة، والمتابعة لصاحب المبادرة.

وبهذا التقرير لتماثل أداء العالم الشرعى والعابد والشاعر مع أداء الصناعى والمهندس والعامل الفنى: يزول وهم مَن يتوهم وجوب تحويل جميع الدعاة إلى المحيط الصناعى، وينفتح بعد إزالة هذا الإشكال باب عريض من أبواب الاستفادة المنهجية من المعانى الإيجابية المصاحنة للصناعة فى العملية التربوية الإسلامية، تأتى مساندة معاضدة لمعانى الجهاد التى تستقر فى نفوس المؤمنين نتيجة لعقيدة التوحيد ولتأثيرات يغرسها تدارسهم القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.

وأستطيع أن أزعم أن سريان هذا التأثير من القدوات الصناعية إلى عامة الدعاة ثم إلى عامة الناس لا يكون محليًّا فحسب، بل يتجاوز القطر الذى فيه الصناعى إلى أقطار مجاورة بل إلى الأقطار كلها، كما يتجاوز العلم الشرعى الحدود تمامًا، وذلك لأن العالم أصبح قرية واحدة، والمخترعات الحديثة والوسائل الإعلامية تجعل ذلك سهلاً، ثم الامتزاج فى المؤتمرات، وعن طريق السياحة والسفر التجارى، ثم مواقع الإنترنت أو احتلال دقائق يوميًّا فى القنوات الفضائية الصريحة.

إن لى جرأة أن أزعم مرة أخرى أن عبقرية الإمام البنا رحمه الله قد أدركت كل هذا العطاء الصناعى منذ وقت مبكر، ومذهبه فى ذلك واضح لمن يتلمس الروح الكامنة خلف سطور رسالة «هل نحن قومٌ عمليون»، وكان يسير على منهج من الوعى التام، لكن الجيل اللاحق أرهقته المحن الثقيلة ووجد الطريق مسدودًا، فألغى التفكير فى ذلك مجبرًا تحت ضغط الضرورة، فطال الأمد، فنشأ جيل ثالث مالكى لم ير عملاً صناعيًّا لأهل المدينة الدعوية، فظن ذلك من العمد التخطيطى، فتوهم ولم يمهر فى التأويل، فهجر الصناعة، ولم يلتفت إلى أصالة مهمتها، وأن منهجية الاستفادة من عطائها تضرب عمقًا فى جذور الوعى الدعوى.

مذهب السلف فى الثقة بالصناعة

وأظلم الظن من المقلد فى هذه المقامات أن يتوهم أن هذا التوجه الصناعى إنما هو توجه جديد محض، فيأخذ يتغنى بجمال العتيد، ويفجر موضوع الأصالة، ويدعى التنكر لطرائق السلف.

وما درى المسكين أن هذه الرؤية التى نراها اليوم إنما هى المذهب السلفى الأول، وأنه أسير بدع قرون التخلف.

هو يذكر لنا الفقر الذى هو فيه، لا ندرى أهو فرح بذلك أم يشكو **فيقول:**

والله مـا بلغـت لى قـط ماشـية حـد الزكـاة ولا إبـل ولا مـال

وقيل: إنه يفخر بتصدقه الكثير، إلا أن ظاهر كلامه أنه يفخر بالفقر، وأنه الجد الأعلى السابع والعشرين لجيل من الدعاة أهل السذاجة قنعوا بالرواتب، وبدراهم تعدها عليهم القطارة الشهرية، فقعدوا عن اتخاذ الأسباب إلى الغنى، وزهدوا ولم يصارعوا القدر بالقدر،

تغريهم الأوهام وتلقينات العجزة، وربما تولع بعضهم بشكل الحياة النمطية واخترع له فلسفة فى ترويجها، وما فطنوا إلى تلوث تسويغاتهم بالجراثيم النفسية ونزولهم المحل الأدنى فى ساحات التنافس مع القوى المسيطرة، من مجاميع وأحزاب ومافيات مالية دولية ومحلية، صفعو اخدنا الأيمن، ثم الأيسر، وهم اليوم يركلون بالعولمة أدبارنا، وما عاد للدعاة اليوم من دفاع غير ثورة اقتصادية يعلنونها، هى فى نطاق الشرع والقانون والنظام والعرف، ولن يستطيع أحد إيقافها، فتكون اندفاعة استدراكية ذات أفق ممتد، تستهدف صناعة ألوف من رجال الأعمال المؤمنين، أصحاب الأيادى المتوضئة، الذين يجمعون المال لأنفسهم، ثم القليل المنعكس منه يكفى للثبات ولصعود المدارج، وليترفهوا بالبقية ما شاءوا، هنيئًا مريئًا، ما دامت إيحاءات الممارسة الصناعية قد صنعتهم لى قادة وأبقت فيهم جذوة الجهاد.

الصفق التجارى هو مذهب السلف، لا فى بعده الشخصى من كسب المال للتوسع على النفس والعيال، لكن فى بعده التخطيطى والسياسى والأخلاقى، وكانوا رحمهم الله أبرع منا وأوعى وأدرى بقوانين حركة الحياة.

وخذ الأدلة الناصعة تباعًا، هاكها يدًا بيد موثقة مسندة.

* **قال البخارى:** باب ما ذكر فى الأسواق:

قال ابن حجر: «قال ابن بطال: أراد بذكر الأسواق: إباحة المتاجر ودخول الأسواق للأشراف والفضلاء. وكأنه أشار إلى ما لم يثبت على شرطه من أنها شر البقاع، وهو حديث أخرجه أحمد والبزار، وصححه الحاكم، من حديث جبير بن مطعم: أن النبى ﷺ قال: «أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق». وإسناده حسن، وأخرجه ابن حبان والحاكم أيضًا من حديث ابن عمر نحوه.

قال ابن بطال: وهو أُخرج على الغالب، والأقرب: سوق يذكر فيها الله أكثر من كثير من المساجد»[1].

وفى عبارة ابن بطال الأخيرة اضطراب، لكن مقصدها واضح جدًّا **وكأنه يقول:** إن سوقًا واحدًا يؤسس على الإيمان ويذكر فيه اسم الله كثيرًا وتؤدى أمواله وأرباحه إلى إسناد عمليات ذكر الله كثيرًا فى سائر البلاد هى عند الله أعظم من كثير من المساجد.

(1) فتح البارى 5/ 242.

وعبارة ابن بطال رغم اضطراب إنشائها اللغوى أو وجود خطأ مطبعى أبهمها - هى معادلة عظيمة الأهمية من معادلات فقه الدعوة، صعب فهمها على الدروايش، لكن نبلاء الدعاة العصريين يعرفون معناها الكبير ومغزاها التخطيطى ودورها الانعطافى بالمسيرة إلى التمكين.

إنها أسواق يذكر فيها اسم الله نخطط لها، لا أسواق الغفلة والجشع.

لو كنت قلت ذلك، وأن سوقًا يذكر فيها اسم الله هى أعظم عند الله من عديد من المساجد، لثار على المقلدون واتهمونى بمروق ودعونى إلى توبة، لكنه ابن بطال شارح البخارى وأحد أعلام الفقه.

* ولسنا الآن نكتشف أن الاقتصاد والسياسة وجهان لعملة واحدة وأن المال والسلطة توأمان، لكنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد رأى سيرين والد التابعى المشهور محمد بن سيرين يتجر فى السوق، وهو من الموالى، فقال:

«يا معشر قريش: لا يغلبنكم هذا وأصحابه على التجارة، فإنها ثلث الملك» (1).

فجعل المال جزءًا لا يتجزأ من الملك، الثلث، بل هو النصف، وهذه قمة الوعى، وكنا قومًا غافلين عن هذه المعانى، لأنا فهمنا الزهد فهمًا مغلوطًا، وآن لنا أن نتوب، إذ إن هدفنا سياسى، ونسعى له فقراء، مما جعلنا نراوح فى محلنا لا نبرحه.

نحن دعوة نريد للإسلام أن يحكم الحياة، ولا يحكمها إلا عبر سلطة، والسلطة لا تهدى إليك هدية، إنما هى المغالبة، والمال أساس، وهو الرقم الصعب فى عملية الإزاحة الفيزياوية، ولذلك عبر عنه بالتجارة، ومعناها واضح فى شمولها الصناعة والزراعة والخدمات، لأن هذه الأنواع ما كانت تؤدى تلك الأيام بالشكل الضخم الذى آلت إليه الآن بعد التطور المدنى، فكأن عمر رضي الله عنه يقول: المشروع الصناعى ومقدمته العلمية وتوابعه السياسية والتجارية والتمويلية إنما هو ثلث الخطة الإسلامية التمكينية للدعوة الإسلامية، بما تصرف منه على إعلامك وأعلامك، وبما تشترى به من معابر تغنيك عن خوض أنهار الدماء، وبما يكون من التفاعل مع المنظومات الإنتاجية من غرس لكبرياء الإيمان فى النفوس، ولمناحى الإبداع، ولكل إيجابى من الأخلاق والطباع.

(1) إصلاح المال لابن أبى الدنيا / 248 تحقيق مصطفى القضاه.

* ولطالما وضعنا قاعدة لنا فى الاشتقاق الفقهى أن ما توصف به دولة الإسلام وسياسة الإسلام يمكن أن توصف به دعوة الإسلام والجماعة القائمة بهذه الدعوة، فى الأغلب، ما لم يقم دليل يمنع هذا القياس.

وجريًا مع هذا المنحى، فإن ما أوجبه الفقهاء من وجوب سعى الدولة نحو الغنى والرفاهية يجب على مجموعة الدعاة أيضًا، وبداهة العقل تكفى فى هذا وأصلية الإباحة، ولكن المؤمن يحب أن يسند رأيه إلى جيل الثقات القديم.

ذكر الأستاذ الدرينى أن ابن أبى الربيع اعتبر «المال الجم إحدى الدعائم التى تقوم عليها الدولة».

ونقل عن الماوردى أنه قال فى القواعد التى تقوم عليها الدولة: «خصب دائم، أى الوفرة فى نتاج الأرض، والممتلكات والأموال، فبها يقل فى الناس الحسد، وينتفى عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس، وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدولة وانتظام أحوالها، لأن الخصب يئول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والشجاعة»[1].

وهذه الحروف هى فى الحقيقة نظرية كاملة فى التربية أيضًا، تعتمد على استقراء الواقع الاجتماعى وطبيعة الفطرة الإنسانية، وهى أصل نظريتنا، وعلى قيادة الدعوة الإسلامية أن تسعى إلى تكثير مال الدعاة بتشجيع تكوين طبقة رجال الأعمال الدعويين؛ لأن من شأن فيض المال بين الدعاة إنتاج هذه الأخلاق الرفيعة، من قلة الحسد، وسعة النفوس، والأمانة، والشجاعة، فتتكون آثار إيجابية من كل ذلك تختصر الطريق لنا، فضلا عما فى المال من تمكيننا من استعمال الوسائل المدنية والعلمية التى لا تتاح إلا بصرف، فضلاً عن ضرورته لاستمرار مؤسساتنا ووسائل إعلامنا ولممارستنا السياسية، ومن يظن العكس وأن التحاسد ينشأ عند غنى البعض وفقر البعض من الدعاة فقد وهم؛ لأن هذا الحسد لا يضرنا، لأنه محض عدوان من المحروم ولا نخاف منه، بخلاف حرمان الجميع وإملاقهم ونشوء الوساوس بينهم وانحرافات النفوس، إذ كاد الفقر أن يكون كفرًا، والتكافل داخل صفنا يمنع هذا الحسد إن

(1) خصائص التشريع الإسلامى لفتحى الدرينى/ 165، وأحال على أدب الدنيا والدين للماوردى/ 127، وسلوك المالك لابن أبى الربيع/ 118.

obeikandl.com

شاء الله، والتوكل يجتثه وينبغى أن تنتفض الدعوة على واقعها الآسر وتمضى قدمًا فى همتها الاقتصادية.

إن هذا التحليل النفسى من الماوردى ينبغى أن يصنف ضمن الوثائق الفقهية العالية المستوى البالغة الأهمية، لأنه غوص عميق فى طبيعة النفس الإنسانية ومحركاتها وأسباب انحطاطها أو مدارج سلامتها، وهو أصل رؤيتنا الجديدة لمنهجية التربية الدعوية ودور المشروع الصناعى فيها، ولا مجال لمقلد بعد هذا البلاغ إلا أن يتوب، وإلا فإنها المغالطة.

* ويشهد لهذه المعانى ويكملها مذهب الصحابى حويطب بن عبد العزى القرشى رضي الله عنه، إذ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : «يا أمير المؤمنين: فرضت للعرب فى العطاء، فأهلكتهم: يتكلون على العطاء، ويدعون التجارة، ويلهيهم»(1).

وهو «حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد شمس القرشى: كان من أعيان قريش، وأسلم فى الفتح، وكان حميد الإسلام، وكانت وفاته بالمدينة سنة أربع وخمسين من الهجرة وهو ابن مائة وعشرين سنة»(2).

إنه يذهب لأبعد من أن يرى التجارة مشروعًا وتخطيطًا.

إنه يرى تركها الهلاك بعينه، لأن فيها تحويل جيل آخذى الرواتب إلى سلبيين اتكاليين.

بل الأغرب فى قوله: ذهابه إلى المعنى المعاكس حين قال: يلهيهم، أى العطاء أو الراتب. فلم يقل مثل الرجعيين: إن التجارة هى التى تلهى، كما هو قول بعض أقراننا، بل إن وجود الراتب هو الذى يلهى.

يلهى عن الاستزادة والمنافسة فى الخير، ويلهى عن الفاعلية والإيجابية المصاحبة للصفق التجارى، وبذلك يكون الخدر والاسترخاء وصفات السلب.

إن حويطب رضي الله عنه بهذ التصريح الواعى صار هو التقدمى المتطور المؤهل لعصر العولمة المعقد، ونحن المعشر البدائى، ولو كان حيًّا هذا اليوم لكان أول الموقعين على قرار إطلاق المشروع الصناعى الجبار، وأول المساهمين فيه، وأول المبشرين بمنهجية استدراكية جديدة فى

(1) كتاب إصلاح المال لابن أبى الدنيا / 175.
(2) فتح البارى 16/ 272.

التربية الدعوية تعتمد إيحاء الآلة، وصدى السوق، وأحاسيس التفاعل مع يوميات التنافس المالى، وإلقاءات المنظومات الهندسية والبرمجية والإنتاجية والتسويقية.

اللهم اغفر لقومى ... فإنهم لا يعلمون.

* ولهذا بالغ أحد الأئمة الفقهاء فزعم أن التجارة والجهاد فى درجة واحدة سواء، سوى الله بينهما فى قوله تعالى فى سورة المزمل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزّمل:20] .

قال القرطبى: «سوى الله تعالى فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على أنفسهم وعيالهم، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد، لأنه جمعه مع الجهاد فى سبيل الله».

وقال ابن عمر: «ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت فى سبيل الله أحب إلى من الموت بين شعبتى رحلى، أبتغى من فضل الله ضاربًا فى الأرض»(1).

بل رفع ابن أبى الدنيا هذا القول إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه(2).

ولعل للداعية إشارة فى قصة داود عليه السلام ، فإن النبى ﷺ أخبر أنه كاهن لا يأكل إلا من عمل يده، فجعل ابن حجر ذلك «دليلا على أنه أفضل المكاسب» فكان ينسج الدروع ويبيعها، ولا يأكل إلا من ثمن ذلك، مع كونه كان من كبار الملوك. قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص:20] «ومع ذلك كان يتورع ولا يأكل إلا مما يعمل بيده»(3).

وانظر الموافقة القدرية فى هذا الاستشهاد، فإنه عليه السلام كان يتعامل مع الحديد ويصنع الدروع، فتعلم من الحديد الجهاد بعد الزبور، ومعنى هذا أن إحياء فقه الدعوة يقوم بإحياء نظرية قديمة نبوية فى الصناعة ولا يبتدع جديدا.

(1) تفسير القرطبى 19/ 55.
(2) كما فى كتاب إصلاح المال/ 241.
(3) فتح البارى 7/ 256.

وأظن أن فى هذه الأصول السلفية الستة لمنهجية استيحاء الصناعة والتجارة وبيان دورها السياسى والتربوى كفاية، والذى ألهته الرواتب لن ينفعه أصل سابع.

* وأى صاحب راتب يستطيع أن يجدد قصص أبى بكر وعثمان وسعد بن عبادة رضي الله عنهم ؟

يتقدم أبو بكر رضي الله عنه أصحاب قصص الكرم ونجدة الإسلام بالمال، حتى قال النبى ﷺ كما فى صحيح البخارى: «إن أمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر».

وفى حديث ابن عساكر: «أن خير المسلمين مالا أبو بكر، أعتق منه بلالا، وحملنى إلى دار الهجرة».

قال ابن حجر: «وجاء عن عائشة مقدار المال الذى أنفقه أبو بكر فروى ابن حبان من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: أنفق أبو بكر على النبى ﷺ أربعين ألف درهم» (1).

وهو مبلغ كبير بموازين تلك الأيام، وأهميته أنه جاء منجمًا مرة بعد مرة، مما يشير إلى أن هذا الإنفاق لم يكن نتيجة ساعة من الأريحية تصاعدت فيها همة الإنفاق ثم انقطعت، وإنما كان نتيجة إيمان عميق ونظر واعٍ وتصميم على رصد المال لخدمة دعوة الإسلام، بحيث إنه لما مات لم يترك دينارًا ولا درهمًا كما روى الزبير بن بكار عن عروة عن عائشة فى تمام الشروح التى ساقها ابن حجر.

* ثم تلاه عثمان رضي الله عنه ، حين جهز جيش العسرة الذى غزا تبوك، فأعان بثلاثمائة بعير، وبألف دينار صبها فى حجر النبى ﷺ (2).

* وأى داعية لا يتمنى أن يكون غنيًّا ليسد حاجات الدعوة اليوم يقتفى آثار قيس بن سعد ابن عبادة وآثار أبيه رضي الله عنهما فى نجدة المسلمين!!

* ففى البخارى، فى قصة غزوة سيف البحر، أن قيس بن سعد قال لأبيه: «كنت فى الجيش فجاعوا. قال: انحر. قال: نحرت ثم جاعوا. قال: انحر. قال: نحرت. قال: ثم جاعوا. قال: انحر. قال: نحرت. قال: ثم جاعوا. قال: انحر. فقال: نهيت» (3).

(1) فتح البارى 8/ 13.
(2) فتح البارى 8/ 54.
(3) صحيح البخارى 9/ 143.

obeikandi.com

نهاه أمير تلك الغزوة أبو عبيدة رضي الله عنه .

قال ابن حجر: «وذكر الواقدى بإسناد له أن قيس بن سعد لما رأى ما بالناس قال: من يشترى منى تمرًا بالمدينة بجزور هنا؟ فقال له رجل من جهينة: من أنت؟ فانتسب له. فقال: عرفت نسبك، فابتاع منه خمس جزائر بخسمة أوسق، وأشهد له نفرًا من الصحابة، فامتنع عمر؛ لكون قيس لا مال له. فقال الأعرابى: ما كان سعد ليجنى بابنه فى أوسق تمر، فبلغ ذلك سعداً، فغضب، ووهب لقيس أربع حوائط أقلها يجذ خمسين وسقًا.

وزاد ابن خزيمة من طريق عمرو بن الحارث عن عمرو بن دينار، وقال فى حديثه: لما قدموا ذكروا شأن قيس، فقال النبى ﷺ : إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت» (1).

قال ابن حجر: «وقد اختلفوا فى سبب نهى أبى عبيدة قيسًا أن يستمر على إطعام الجيش، فقيل: لخشية أن تفنى حمولتهم، وفيه نظر، لأن القصة أنه اشترى من غير العسكر. وقيل: لأنه كان يستدين على ذمته وليس له مال، فأريد الرفق به، وهذا أظهر، والله أعلم» (2).

وأرى أن صاحب النفس الحرة من الدعاة، الكريم، العزيز، يظل أبدًا مشدودًا إلى هذه القصة، يتصدى لقدر الله أن يكون هو المنجد الباذل إذا توقع مالا حتى ولو لم يكن مليًّا، وإنما يدخر الله لدعوته وفتح مضايقها مثل هذه الهمم العبادية، فكيف بمن أغنته التجارة؟

استنتاجات مهمة

هذه التقريرات المهمة تعيد ترتيب بعض قناعاتنا، **فمن ذلك:**

* إعادة الاعتبار لأهل التجارة ورجال الأعمال من الدعاة من بعد موجة طعن بهم واهمة، وتضعيف لهم، واتهام باطل ما أنزل الله به من سلطان بأنهم لا يهتمون بأمر الدعوة، بل انتهت هذه المعانى إلى أنهم شريك رئيس فى حمل الأمانة الدعوية، وفى التربية، وفى التطوير، وهم أقرب إلى الابتكار والإبداع من مقلد يكرر الكلام.

* وإعادة الثقة لرجال الأعمال الدعاة بأنفسهم وإعلامهم، بأنهم على الطريق السوى إن

(1) فتح البارى 9/ 143.
(2) فتح البارى 9/ 143.

obeikandl.com

شاء الله، وأحرى أن يضاعفوا عملهم، ثم أحرى بهم أن يتفكروا بطريقة فى توسيع عددهم والتقاط دعاة آخرين من الوظائف المكتبية التى استهلكت هِمَمهم إلى الصناعة والتجارة وسماع ضرب المطارق ودوران المناشير والاقتباس من حرارة الأفران.

* وبهذا أصبح الصناعى هو المعلم المربى المعلم للجهاد، وهو أستاذ التحدّى وإن لم يشارك فى الاجتماعات بكثرة، لأنه ينتصب قدوة فى النفس العالية المتحدية، ويؤدى دوره كرمز صلب بعدما أكسبه الحديد الصلابة، ومثله فى ذلك كمثل العالم الشرعى الفقيه الذى ينتصب قدوة بما عنده من موازين وتأصيل.

* وأما المتجردون من الدعاة للعمل اليومى الدعوى وعقد الاجتماعات الأسرية والتربوية فهم كمثل الزهاد والعبّاد من السلف الذين انقعطوا للتهجّد وترويض أنفسهم وتعمير القلوب، وفى كل خير، فكما لا يمنع وجود الفقيه وجود الزاهد السالك، بل يتكاملان، فكذلك لا يمنع وجود النقيب وجود الصناعى والتاجر، بل يتوازيان.

* أما أن ينحرف داعية ويتبطر بعدما يُثرى من تجارة وصناعة فذلك حادث لا يستفزنا ولا يُبطل أصل مشروعية التجارة والصناعة ولا فقه تضمينهما منهجية التربية الدعوية، لأن أجيال المسلمين رصدت وجود علماء شرع من أهل السوء ووعاظ سلاطين، يفتون بالزور ورخيص القول، فما ضرَّ الثقات ذلك، ولا تسبّب فى ردود فعل تقفل أبواب المدارس الشرعية التى خرّجتهم، ليقين الفقهاء الأتقياء الأوفياء أنه لا يصح فى الآخر إلا الصحيح، وأن الزمن سيطوى النفعيين ودجاجلة العلم، فكذلك من يسىء من الدعاة وينحرف بالفقه الصناعى والمنهجية التجارية إلى نفعية وعَرَض زائل، سيطويه الزمن، وترفع عنه البركة، ولا يفقل نكوصه باب الصناعة والتجارة.

كلنتون ثم بوش يقودان إلى المال بالسلاسل

* إن منع العمل الخيرى، وتشديد أمريكا على منعه وتجفيف منابع إمداد النشاط الإسلامى بالمال، قد رآه بعض الدعاة مصيبة، وحسبوه مشكلة عويصة، واغتموا لذلك، وأنا رأيته خيرًا محضًا، وهبة ربانية جليلة، وعندى أن الله تعالى هو الذى أنطق أمريكا بالخطأ، وهداها إلى الطيش، ليكون نفاذ القدر العلى بقيادة القوم الدعاة إلى الجنة بالسلاسل، رغمًا

عنهم، ليرفلوا بالمال بعد دهر من كسل عن طلبه إذ هو منهم قريب، وتعفف مصطنع عن مغريات يتوهمونها مختفية فى طياته، وما دروا أن الله تعالى قد رضى عن مسيرتهم المتعبة الشاقة الطويلة المليئة بالمحن، وأنه قد تاب عليهم لما رآهم يقتربون من مشارف النهاية، فأذن لملائكته أن تقطف الدنانير والدراهم من أغصانها الوارقة وتضعها فى جيوبهم.

وهكذا أرى، أننا اليوم فى بدايات مرحلة من دفع عناصرنا إلى محيط التجارة والصناعة والزراعة لتكوين طبقة واسعة من رجال الأعمال المسلمين فى أنحاء الأرض يتمولون، ثم يفيضون من خيرهم على الدعوة والجهاد بما هو أكثر من عطايا الجمعيات الخيرية وجمع أوساخ الناس، وبما هو أنقى وأعطر رائحة وألمع بريقًا، فتكون ممارستنا السياسية مسنودة بالليزر النفاذ المخترق.

* وتعترض دعوة فى بلاد فقيرة على حماستنا لهذا التوجه الصناعى، وأنه لا يناسبها، ولا تستطيعه، وتعتبره من الجزاف والخيال والتمنى، والواقعية أولى، والتناسب مع البيئة أجدى.

وهذا اعتراض صحيح، لكنه بالنسبة لفقراء، كتب الله على بلدهم الفقر، ويبقى فقه التوجّه الصناعى لائقًا لمجموعة دعوية أخرى فى بلاد غنية أنعم الله على بعض دعاتها بالمال والمكانة والعلاقات السالكة مع أهل النفوذ، وكلامنا لمثل هؤلاء يُوجَّه، ولهم نخاطب، أن لا يتكلفوا النزول إلى مستوى طباع الفقراء فى القناعة واستقبال الضيق كأمر محتوم كتبه القدر، ظنًّا منهم أن ذلك أقرب إلى سمت الإيمان وهدى السلف الصالح، بل نطلب منهم أن يَسْعَوا فى استعمال المعطيات التى توفرت لهم، من جاه أو مال، لتأسيس تجارة وإنشاء مصانع، فتعمرالطباع الإيجابية ويتألق الطموح وتكون ثمّ حَماسة لاهبة، وصمود يوحيه الحديد إذ تدور عتلاته ودواليبه، ونظامية تدرب عليها الأبعاد الهندسية، وأمل دائم يتجدد كلما قذف خط التجميع منتوجًا، فيكون جلاء اليأس عبر استمرارية الإنتاج، وتندمج الروح المشرقة المنفتحة المتولدة من ذلك مع الصمود والطموح والتحدى ونمط الأداء الموزون، ليتولد من ذلك كله استعلاء على التطبيع مع عدو، ونبض وجدانى متصاعد تفور معه دماء القلوب، فيكون الجهاد الواعى.

بل حتى البلاد الفقيرة مرشحة لمثل هذا، إذ يرينا التحليل الاجتماعى ومراقبة الحياة فى

عموم أقطار الأرض أنه ما من بلد يُغلق على فقر، وإنما توجد فى كل بلد فقير طبقة من الناس غنية، جاء غناها عبر أسباب شتى من حلال وحرام، وكما سبّبت غنى البعض أشكال الفساد الإدارى والاحتكارات: سببّه أيضا للبعض الآخرخطوات نظيفة لا تشوبها شائبة، وإنما هو محض الكفاح اليومى والذكاء والمبادأة والصبر، بعد التوفيق من الله تعالى، ونظن أنه يليق لدعوة إسلامية فى بلد فقيرأن تخطط لإيصال معانى الدعوة إلى هذه الطبقة الغنية، وبخاصة إلى الشباب من أبناء هذه الطبقة، فإذا ما نجحت فى مسعاها هذا كانت الثُلة المؤمنة من أبناء الميسورين هى الرائدة المقتحمة لدرب الصناعة والمنظومة التجارية المكملة له، ويكون انتصابهم بعد ذلك كقدوات فى الجهاد يربون الدعاة جنبًا إلى جنب مع علماء الشرع والوعاظ من الدعاة الفقراء، فى تكامل وتتام، وهذا يوضح أن حسن التأتى والتخطيط، والعزم على تحوير الواقع إلى ما يتناسب مع الهدف الدعوى يجعلان منهجية التربية بالصناعة مُتاحة للبلاد الفقيرة أيضًا، وليس صحيحًا أن سلوة البلاد الفقيرة إنما تكون بترداد سؤال هرقل: إن كان فقراء الناس قد اتبعوا محمدًا ﷺ أم أغنياؤهم؟ وجواب أبى سفيان رضي الله عنه : بل فقراؤهم. وتعليق هرقل: كذلك هم أتباع الرسل. ذاك أن هذا الحوار كان بداية الدعوة. وقد حكر الله تعالى شرف السبق فى الغالب للفقراء، لكن أبا بكر رضي الله عنه كان أسبق منهم، وكان غنيًّا، ثم تكاثر المؤمنون من أهل الغنى والتجارة من بعد، فكان عبد الرحمن بن عوف، وعثمان، ونبلاء الأنصار من أهل بيعة العقبة رضي الله عنهم ، وهذا إن كان محض قدَر ربانى أيام البعثة الشريفة فهو قدر ويمكن أن يتكرر، وإذا كان تخطيطًا من النبى ﷺ قصد به أن يُعِز الأغنياءُ الإسلام بأموالهم بقدر الله فهو تخطيط ويمكقن أن يتكرر، وفى الحالتين لا تجد دعوات الإسلام فى البلاد الفقيرة حجة لها تنصرها فى مذهب اليأس والعزوف والقعود والتثاقل إلى الحصير، كأن الفتن لازمة لأهل المكاتب والمقعد الوثير.

* ثم اعتراض مثيل يرد من بلاد فيها ظلم وطغيان ومبالغة من الحاكم فى التضييق على الدعوة، فيرى دعاة هذه البلاد أن التوجه الصناعى مجرد رمز لا ينال، وذلك يكون الحديث عنه ضرب من الترف الفكرى الملهى عن الممكن العملى.

وهذا نظر من زاوية ضيقة، وحجر على واسع، وتجميد لحركة يمكنها أن تدأب وتسعى، فإن بسط الخوارط واستقراء الواقع يرينا أن هذا الشكل من كيد الحكام فى منع الدعوة من

الفرص ينحسر، وأن أكثر البلاد تتيح الممارسة الفردية للدعاة لأنواع من الصناعات عديدة إن لم يكن المجال مفتوحا فتحًا تامًّا، والتضييق قد يكون فى التمويل فقط، إذ استطاعت جبهات النفوذ ومراكز القوى فى السلطات الحكومية أن تحتكر عمليات الائتمان المصرفى، حتى الإسلامى منه أحيانًا، وأما أن تمنع السلطة الأموال الحُرة من أن تصول صولتها فهو ما لم يحصل إلا قليلا وفى ظروف استثنائية، وهذا الاحتكار أو الاستئثار الجارى يجعل التوجه الصناعى الإسلامى صعبًا صعوبة نسبية ولا يجعله مستحيلاً، وتظل بلاد كثيرة معافاة من ظاهرة الظلم المالى وإن انحرفت سياساتها نحو العلمانية والتطبيع والاقتراب من المطالب التى يشترطها النظام العالمى، ولمجموعات دعوية فى مثل هذه البلاد نتوجه بنظريتنا فى التربية بإيحاء الصناعة، وتخلف المعذور والمقهور لا يلغى تمكن المعافى من الاقتحام الجرىء، ولا تحرمه من الوثوق بالصناعة كمصدر من مصادر التربية ودفع الدعاة إلى التحليق فى عوالى المعانى ونفيس الأحاسيس، وللمظلوم رب يربّيه، وليس عطاء المعاناة إذ هو يرزح تحت أثقال المحن بأقل من عطاء الصناعة، بل هو أكبر وأبرك، وفى معاناته دروس رفيعة فى التحدى مثيلة لما تهبه الصناعة، لكن المؤمن مأمور أن يسأل الله العافية وأن لا يتمنى لقاء العدو، ولمن عافاهم الله ووهبهم الحرية نتكلم: أنهم إذا فاتتهم تربية المعاناة بما وهبهم الله من المعافاة فإن فى إيحاء الصناعة البديل، ثم هو القرآن يعظ الطرفين، المعافى والرازح تحت الاستبداد الثقيل.

كنت أعتدى على نفسى، وعلى الفراسة الإيمانية، فأسأل قلبى لماذا رضينا بالأمس أن تكون يدنا السفلى، ولماذا ذهلنا عن تكوين طبقة رجال الأعمال ذوى الأيدى المتوضئة، لكنى سرعان ما أعود إلى رشدى فأوقن أن الله تعالى منع بحكمته، ثم هو يأذن اليوم بحكمته، وعقيدتى فى ذلك جبرية محضة، وأن المال الآن ينتظر رجالنا إذا مدوا أيديهم.

ألوف قليلة تكفى لك رأس مال أولى لتقرر، وأبخل على نفسك وزوجك سنة، كى تدع المال ينمو، وستجد نفسك بعد سنوات فى جملة الراقين على درج اليسار، ثم بعد سنوات فى مصعد أصحاب عشرات الألوف، ثم تخترق حاجز المائة بلا فرقعة ولا رعد، وما يدريك بما هو أكثر، فعلى نياتكم ترزقون، ولعل البعض سيرحمه الله ﷻ فيخترق حاجز المليون إذا علم منه الوفاء، فترنم بصلة الأرحام الإيمانية ثم وصل.

أخى: انتفض. اركض إلى السوق فورًا، الآن الآن وليس غدًا.

* يا ترى ما الذى أذهلكم!

مازلنا ننادى فيكم: المال المال، ثم هاأنتم ساكنون!

بأى لغات الكمبيوتر تريدون أن نتولى عملية التفهيم، وبأى البرامج؟

لقد استعملنا حتى الآن ويندوز إكس بى ثم أنتم سادرون؟

يا أيها الدعاة..

يا إخواتى يا أملى...

أفيقوا، واخرقوا الشرنقة تجدوا الربيع والنور وألوان طيف جميل، وتجدوا أجنحة جميلة قد خلقها الله لكم.

* إلا أنى برىء من تهوركم!

كلامى فصيح صحيح لا يحتمل المعانى المشتركة، وما هو بمغلق، بل أجازه سيبويه بما رأى فيه من نصب ورفع وتنوين.

لست أدعوك إلى هجمة بلا وعى، ولكنى أريدك أن تكون منهجيًّا، تخلو إلى نفسك سويعات كل يوم لشهر، وترسم خارطة طريقك، ثم تستشير الأقرب فالأقرب ممن سبقك وارتاد، ثم تطلب لرجلك قبل الخطو موضعها، فتتحسس وتتلمس وتتجسس، ثم تتدسس وتتغمس، ثم تقف تتهجس، وترسل التكبير وتميل أذنك إلى الصدى، فإن كانت نغمته حجازًا فذلك إذن لك بالطرب، فامض على بركة الله وفق قواعد السوق، من دراسة الجدوى، والتدرج، والسحب، وطلب الشريك فى الصفقة الكبيرة، فى سلسلة من الوصايا التى يتوارثها خبراء الدينار، ويدركها أهل الدولار، حتى إذا عرفت منزلة رنين الدرهم من السلم الموسيقى: تركناك وشأنك، تجازف وتغرف، وتلفلف وتعزف.

أو نجعلك تستمتع بألحان جميلة لا تستطيعها حنجرة بشر ولا جان، وأنت وزوجك بآلاء ربكما لا تكذبان - أن تفعل ما فعله ذاك الذى روى لى قصته أبى رحمه الله .

قال لى أبى: كان فلان فقيرًا، ثم أغناه الله تعالى، وكان قد حلف أنه إذا أدرك الثراء قبل

موته أن يتمدد على منضدة مرفعة، وتضع زوجه ليرات الذهب على صدره وبطنه، ثم تتركه ساعة، ثم يأمرها أن تغافله فتدغدغه، فيضحك ويهتز كرشه، فتتساقط الليرات على أرض الرخام فيطرب لرنينها، فكانت زوجه تفعل ذلك له كل جمعة، **وكان يقول:** والله إن هذا الرنين لأجمل من أغانى أم كلثوم ألف مرة.

* ومن يقف فى تقاطع طريق داخل دكا عاصمة البنغال مثل وقوفى ذاك اليوم يعرف معرفتى. كنت أقف مشدوهًا أمام ألوف من الركشا، وهى عربات الدرجات الهوائية والنارية تندفع فى الشوارع تنقل الراب، يجلسون خلف السائق، ومناظرها فى تقاطعات الشوارع لستُ أمثلها بغير غابة كثيفة من الدراجات تندفع مثل كتلة واحدة.

هى ألوف، ومنظرها لم أره فى مكان آخر، لكنه لقننى درسًا!

هذا السائق المسكين الذى يريد أن يكسب قليلاً من المال بشرف، وبعرق الجبين ودفع عضلات أرجله، إنه يكدح، ويتعب تعبًا مضاعفا، فيؤسر قلبك له، لكن الذكى منهم يجعلها مرحلة فى حياته، ويجمع من المال ما يشترى به من بعد دراجة نارية، فيمكث معها دهرًا، فيجمع ليشترى سيارة أجرة، وينتظر زمنًا، فيجمع ليشارك فى شراء سيارة حافلة، وربما أستأجر غيره ممن هو أفقر منه من المبتدئين ليستعمل دراجاته الهوائية والنارية وسيارته ويتناصف معهم كسبهم، وهكذا تدور حياة هذا الصنف من الناس، تمامًا مثل دورة حياة المخلوقات البرية أو البحرية، كيف تكون مخلوقات صغيرة لا ترى بالعين المجردة طعامًا لأكبر منها، وهذه تكون طعامًا لسمك صغير، وهذا يكون لسمك كبير.

إنه درس نافع، وكذلك دواليب السوق والتجارة والزراعة والصناعة، تدور وتدور، لكن من الناس من يفهم دورتها ويفطن فيركض معها، ومن الناس من يغفل عن ذلك، فيعيش عمره على هامش الدوران، وهو يدعى فى الناس بالداعية المسكين الغلبان بن النعسان، من قبيلة الفلتان، من العرب البائدة لا من عدنان ولا قحطان.

* **سيقال:** تريد كل الدعاة رجال سوق وأعمال، إذن من يكتشف الفقه، ومن يبحث ويكتب، ومن يربى وينشر الدعوة؟.

فأقول: لا داعى للوجل، فإن القدر يتكفل بتوزيع إخوانك، وكل ميسر لما خلق له،

وليس كل ما ناديناه يستجيب وينجح، والهمم مراتب، والأرزاق مقسومة قبل ندائى، وهو فى السماء، ومن فى الأرض نوازعهم شتى، ومحركاتهم مختلفة، فلم القلق؟ وأنا إنما أردت رجال الأعمال يزودونى بالمال، وبالمال أصنع الكفايات، وأفتح مراكز البحث وألج السياسة، وأنشر الخبر، وأطيل النظر، وأدفع الضرر وأدخل البرلمان، وأشترى الإنسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟

وسيقال: ستفتح باب التحاسد بذلك!

فأقول: أما المؤمن فيرضى ويدعو بخير لأخيه إذا وفق، وأما الحاسد فدعه وما اختاره ودعه يترك ويباعد، ووجوده معنا يعنى أن هناك نوعًا من الخطأ ارتكبناه حين آويناه، ثم انكشف أمره، وهذا خير، والمحسودون محروسون بحراسة الله وبركة قرآن يتلى ومعوذات وصدقات.

وسيقال: فتحت بابًا للدنيوى أن يتمول فيتبطر ويكسل ويتركنا!

فأقول: ولم لا، ضعيف لا تفضحه فراستك الضعيفة، فيفضحه المال، وتتخلص من عنصر لا بركة فى صحبته، وأما الحر فهيهات؛ لأنه أصيل، وفى أنفاسه البركات قبل أمواله، والموفق من وفقه الله والمخذول من خذله الله، لست عليهم بوكيل، ولا تعلم مكامن الخيرات، ومنطق الفقه يدعونا إلى اتخاذ الأسباب، وإشارات العقيدة تحدونا إلى طرق الأبواب، والتثبيت من الله، ليس بدرس منك ولا حرص ولا خطاب.

* وأظن أن المجادل سيقاتل فى خندق أخير فيزعم أن كون الداعية مهندسًا يكفيه، وأداؤه الهندسى سيمكنه من تجميع انعكاسات الأداء المبرمج وإيحاء الآلة، ولذلك يكفى أن ندفع الدعاة إلى دراسة الهندسة وأداء الوظيفة الهندسية!

وهذا صواب ناقص مبتور، لأن صاحب المشروع الصناعى يشتغل بكل حواسه وطاقاته وإبداعه، فيكون الإيحاء التربوى المنعكس وافرًا، وأما الأجير فهيهات أن يبلغ تشغيله لحواسه ربع ذلك.

* وهل يعنى هذا أن التفضيل فى الدعوة للمهندس، وأننا يجب أن ندفع الدعاة لدراسة الهندسة؟

كلا، بل الشمول أصوب، وفيمن تسوقهم الأقدار إلى الدراسة الهندسية كفاية، وما هم بقلة الآن، والواجب توزيع الدعاة الشباب الجدد قبل اختيارهم تخصصاتهم عند التسجيل فى

الجامعات إلى دراسة الإعلام والاقتصاد والعلوم السياسية، والقانون والأدب والتاريخ، إذ التربية كما أسلفنا ليست كلها ضمن المنهج الأسرى، بل بما يشيع فى المحيط الدعوى فى الحياة اليومية المنسابة من وجوه جَدَل مع الخصوم وردود وحجج، وهذه التخصصات الشمولية هى التى توفر ذلك، ثم لسنا نمنع شابًّا أن يختار دراسة الهندسة والطب والفيزياء والكيمياء، وفى كل بركة وخير.

إن محور فكرة لزوم الصناعة أننا نقول بوجوب العلم التطبيقى لنا وأن نبرز فيه ونطوره ونكون قدوة الأمة فى اكتسابه، وبالفحص نجد أن العلم فى الغرب لم يزدهر إلا لأن الصناعة تتطلبه وتعتمد عليه، ولذلك تصرف عليه وتحرص على إسناد المختبرات والعلماء، ولهذا نطلب الصناعة نحن أيضًا من أجل تطويرمقدار علومنا، فإذا مارسناها: سنجد لها من الإيحاء التربوى الشىء الكثير، من تعليم النظام والمنهجية والصلابة والتحدى، فينضاف ذلك كعامل آخر يزيد مقدار حرصنا على أن نمارس الصناعة، ثم ينضاف طلب المال والغنى كعامل آخر.

* ثم ينسى آخر سياق البحث والمقدمات التى أسلفناها فيأخذ بظاهر الاصطلاح، ويظن أننا ندعو إلى مشروع صناعى واحد جبار ينافس المشاريع العالمية العملاقة، فيدعو إلى إلغاء الفكرة، للصعوبة الظاهرة فى إنشاء مثل هذا المشروع بالحجم الضخم.

وهذا خطأ ناتج عن سرعة فى محاولة استيعاب ما نقول، ذلك أننا ندعو إلى مشاريع صناعية وتجارية صغيرة، يديرها الداعية الفرد، أو مجموعة دعاة شركاء، عددهم قليل، ورأسمالهم فى حدود الاستطاعة العرفية، وإنما تنتج صفة الضخامة من كونها كثيرة العدد، وتنتج صفة كونها مشروعًا واحدًا من كونهم جميعًا من الدعاة الذين وحدهم الفكر ونسقت بين أعمالهم الخطط، ومن هنا كان الاصطلاح الذى وضعناه لهذا التوجه الواسع وتسميتنا له بأنه «المشروع الصناعى الجبار»، فهو تيار صناعى تجارى، يستخدم المال الحلال، ويهدف إلى استقلالية الأمة الإسلامية فى وقت العولمة، وإلى تمكين الدعوة والدعاة، وإلى سيطرة إيمانية على حركة الحياة. ومن الواضح أن الدول الصناعية المتقدمة الكبرى قد أحكمت قبضتها الاحتكارية جيدًا، وتستطيع تقديم السعر الرخيص المنافس، وأن استقلالية الأمة صعبة

المنال، ولكن ما تزال هناك ثغرات كثيرة يمكن الولوج منها، وما زال التملص ممكنًا فى بعض الميادين، وبعض الاستدراك أولى من الاستسلام السريع، ثم هى البركة من الله تجعل قليلنا كثيرًا، ثم هى ظواهر حركة الحياة التى تجعل العاتى المتكبر ينبطح أحيانًا أمام عوامل لم تكن فى حسابه، فتصيبه بصداع ثم تراجع، فينفذ المستعد الحاضر من تلك الفرصة، فتكون الأيام دولاً بين الناس، وفى التواريخ شواهد.

أول المشروع صندوق

وهناك جملة توصيات لمن يؤمن بضرورة هذا التوجه ويروم التنفيذ، **أهمها:**

* أن لا تكون أعداد المساهمين فى المشروع كبيرة بمشاركات صغيرة، لأن صاحب المال القليل جدًّا مصدر إقلاق للإدارة، ويجزع عند الخسارة.

* أن يبادر بعض الدعاة الذين ارتادوا فنجحوا ووفقهم الله تعالى إلى إنشاء صندوق دعم المستثمرين الجدد، وأن يكونوا أول المتبرعين لهذا الصندوق بجزالة، ومهمة هذا الصندوق فى كل بلد: تقدم راتب يكفل الموظف المستقيل الراغب بالتجارة خلال المدة الحرجة بما يكفى لمعيشة عائلته لمدة سنة مثلاً، وتقديم منحة له لتأسيس المكتب، وتقديم قرض يسترجع بعد تحقق الأرباح، وأمثال ذلك.

ولعل نقطة البداية تكون عبر قيام شركة إسلامية للاستشارات والاستشارات وتعقد مؤتمرات على هامش المعارض التجارية، ويكون لها موقع على الإنترنت، ويرأسها رمز يستوعب هذه الخُطة الإستراتيجية ويظل متحمسًا لها، ويمكن لهذه الشركة أن تتولى صندوق دعم المستثمرين الجدد والمساهمة بعشرة بالمائة فى كل مشروع جادّ، ويتيح لها ذلك أن تكون ممثلة فى مجلس إدارة جميع المشاريع الجديدة المسندة من أجل ترشيدها.

ولست أشك فى أن اتفاقية التجارة العالمية ستضيق على صناعات الدول الفقيرة جدًّا وتزاحمها وتسلب منها شيئًا كثيرًا مما يمكن أن تتمتع به اليوم، وقد جاء استدراكنا متأخرًا جدًّا، ولكن مع ذلك: فإن حُسن التخطيط قد يُمكننا من التملص من حصارهم الشديد وممارسة سلسلة أعمال صناعية صغيرة لا تستطيع الشركات الكبيرة العالمية أن تنافسنا فيها فى الأسعار ربما، **مثل:**

* الصناعات التى تكون مواردها الخام محلية، فنحصل على فرق سعر النقل ونقدمها فى بلدنا بأرخص من سعر المستورد لانتفاء كلفة النقل.

* المواد التى هى كبيرة الحجم ورخيصة السعر، فتكون كلفة النقل عاملا مهمًا فى تحديد سعرها، ونحن نصنعها محليًّا حتى ولو كنا نستورد مكوناتها، وبخاصة أننا يمكن أن نبيعها محليًا بدون تغليف، والمستورد يُغلف، فنحصل على فارق سعر آخر.

* والتصنيع الزراعى، وتحويل البذور إلى زيوت مثلاً، والتعليب الذى يحفظ المنتوج لمدة طويلة ونبيعه غاليًا، أو فى سوق آخر بعيد، وتدخل فى ذلك صناعة الأعلاف من بقايا معامل السكر ومعاصر الزيت، وتحصيل فرق سعر النقل فقط يتيح لنا أن ننافس المستورد.

* تصنيع المواد المحلية وتصديرها، مما لا تستطيعه الدول الكبرى أيضًا، مثل تحويل الخشب المحلى فى جنوب شرق آسيا إلى أبواب وشبابيك وأثاث يصدر إلى أسواق العالم.

* المقالع والمرمر والحجر، والمناجم والتعدين عمومًا.

* إعادة التصنيع، كإعادة تصنيع ورق من الورق المستهلك، وزجاج من القنانى المكسورة.

* تجميع الكمبيوتر والإلكترونيات للتصريف المحلى، إذ تبقى احتمالات المنافسة قائمة لرخص اليد العاملة، وبخاصة مكيفات الهواء الكبيرة الحجم التى تمثل كلفة نقلها نسبة كبيرة من سعرها.

* صناعة ألواح وجدران الأسمنت السابق الاجهاد بأبعاد قياسية تستخدم فى البيوت الجاهزة والسياجات، ومواد البناء عمومًا.

وهذه أفكار مستعجلة أردت من ذكرها التدليل على إمكان شىء، وعند الخبراء قول أدق، وعقد مؤتمرات لتعيين ما يمكن فعله أولى.

وفى كل ذلك تفصيل يؤخذ مشافهة، والسريرة الصالحة، ونية الإنفاق، والتفاؤل: هى المفاتيح؟

openkandil.com

اسلك المسار... وشيّد ركنًا فى المشروع الجبار

إن روح الجهاد التى ننتظر من الصناعة أن تذكيها، المقترنة بمقاومة التطبيع مع يهود، ستدعمها نزعة تحدٍّ واع للنظام الأمريكى العالمى الجديد، المنحاز للعدو، والقلق من ومضات الجهاد ولمعات البوارق المؤمنة، وهذا التحدى للعولمة هو من مِنح الصناعة ومعايشة الآلات وفرقعة المعادن إذ تقصّ وتثنى وتَربط، فتتربّى قلوب على تلك الأصداء، تضع نفسها فى موضع الإمامة، فيتربى ألوف من كل إمام، وتتصاعد أحاسيس العزة والإباء والاستقلال، ويخرج لكل أزمة أصيل يضرب المثل فى الاستعلاء، فتزول عن كل مستضعف وساوس الاستخذاء.

والتحليل التاريخى يكشف لنا بوضوح أن سيطرة الأمم الصناعية على العالم واستعمارها للأمم الزراعية لم تكن بسبب السلاح فقط أو وفرة المال الذى أسند مواقفها، وإنما كان أيضًا بأسباب التفوق النفسى الذى حصل لتلك الأمم، وامتلاكها لعنصر الثقة بالنفس والاعتداد بالذات، وبروح المبادرة والمبادأة وحب الاندفاع إلى الأمام وإلى المجهول، وبروح التحدى والرغبة فى الحسم والجزم والتقدم الحازم، والنظر المستقبلى البعيد، وحسن التخطيط، والطبيعة النظامية، والسلوك المنهجى، وما كانت جميع هذه المحاسن متولدة من فراغ، ولا تناسقتْ من لا شىء، إنما هى كلها من عطايا الصناعة وإيحائها النفسى وتأثيرها المعنوى، ولئن لم نعاصر المرحلة الأولى من الاستعمار لندرك ذلك جليا، فإننا عاصرنا أزمة الكويت، ورأينا كيف أن تحريرها لم يكن بتفوق الأسلحة فقط، وإنما بالتفوق التخطيطى والخطوات الموزونة أيضًا، وما كانت تلك عطايا آنية بمقابل ارتجال لاصق بصدّام، ولا بأدوية تعاطاها جورج بوش اشتريت له من صيدلية، إنما كانت هى تراكمات السلوك المنهجى وانعكاسات البيئة ذات المستوى المنطقى الرفيع، وكنا قد رأينا قبل عشر سنوات منها تجربة مثيلة فى جزيرة فوكلاند، لما احتلتها الأرجنتين عبر عملية قادها تبجّح ونمط فوضوى، فصبر الجيش البريطانى قليلاً، ثم استدرك بخطوات بطيئة، لكنها واثقة ذات حساب، وأنجز الدمُ الباردُ المهمة بإتقان، ثم فى التاريخ تجارب كثيرة تشهد بمثل هذه الشهادة.

ولست أقبل منك أيها الداعية الانسحاب واتهام نفسك بضعف، إنما تتأسى بما كان من

النبى ﷺ أول الوحى حين قيل له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. ثلاثًا، فقيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق].

قال ابن حجر: «أى لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك كما خلقك». قال: ذكره السهيلى.

فأنت أيضًا أيها الداعية: تريد التربية على الجهاد بالصناعة، وتريد حفظ مكان للأمة فى عالم الصراع زمن العولمة، وذلك أمر كبير شاق، لكنك لا تُقيّم معاملك بقوتك ولا بمعرفتك، إنما بحول ربك وإعانته، فاقتحم، أنت لها، وربك يصنع معك.

قال ابن حجر:

«فإن قيل: لم كرر ذلك ثلاثًا؟

أجاب أبو شامة بأن يُحمل قوله: «ما أنا بقارئ»؛ أولًا: على الامتناع. وثانيًا: على الإخبار بالنفى المحض. وثالثًا: على الاستفهام. ويؤيده أن فى رواية أبى الأسود فى مغازيه عن عروة أنه قال: كيف أقرأ؟ وفى رواية عبيد بن عمير عند ابن إسحاق: ماذا أقرأ؟ وفى مرسل الزهرى فى دلائل البيهقى: كيف أقرأ؟ وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية، والله أعلم»[1].

وكذلك أنت أيها الداعية: تمتنع أولاً، ولك ذلك، فإن المشروع جبار يقذف الرهبة فى قلب أشجع المسلمين. ثم ندعك على رسلك تؤكد عجزك فتقول: ما أنا بصناعى. ولا نلومك، لأن مناهج التربية السابقة أهملت تنبيهك إلى الدخول من أبواب التمكين، أما دلالك وغنجك إن أردته ثالثة فرفيض، لأنه محض تمريض، إنما لك أن تسأل فقط: ما أنا بصانع؟ فتقول لك قرارت مؤتمرات الدعاة المختصين: اصنع كذا، واسلك اليمين، واصعد، واعبر النهر، وتسلق الجبل، واهتف بالأذان، ونضع لك لكل ذلك هندسة وخارطة، لكن بعد أن تسأل سؤالك الواعى: كيف أصنع؟ وليس عند اعتراضك: لست بصانع.

* * *

(1) فتح البارى 1/ 26.